

الاغريق أنفسهم غير قادرين على تحمل هجماته المتكررة ، وأرسل أخيرا قواتا ضخمة وحاصر الحصون وطرد الاغريق بالقوة وهكذا استولى في غضون عام واحد على المنطقة بأسرها (٥٥) .

وهكذا سقط بسبب اثمنا تلك الاقليم الغني للغاية المملوء بالجداول والغابات والمراعي ، ونو التربة المعطاءه لجميع أنواع المنتجات ، وكان مكانا قادرا على تقسيم دعم كاف لخمسمائة فارس ، وانتقل إلى أيدي العدو وهو بعيد حتى الوقت الحالي عن سلطتنا .

وعانت كنيسة أنطاكية من خسارة ثلاث رئاسة أسقفيات في تلك الاقليم ، ومن موجودات في الرها ومنبج والرصافة ، وما تزال هذه الكنائس محتجزة على الرغم من إرانتها من قبل الكفرة وتعيش في ظل شؤون الأمم .

١٨ - الملك ينصح الأميرة بالزواج بواحد من الأمراء ليحكم مملكتها ، لكن نصيحته لم تلق الأذن الصاغية . الملك يمضي من هناك إلى طرابلس في طريقه إلى وطنه .

كان قلق بلدوين ملك القدس كبيرا في هذا الوقت حول أنطاكية والمناطق المتاخمة لها ، وكان يخشى أن تقع في يد العدو وتعاني من المصير المؤلم الذي عانت منه الرها كما ذكرنا ذلك أنفا ، لاسيما وأنها كانت محرومة من حماية أميرها ، وكان هذا سيسبب المزيد من المتاعب ويحدث خسارة لاحتمل للشعب المسيحي ، ولم يكن الملك نفسه حرا للبقاء لفترة طويلة في أنطاكية حيث تطلبت مسؤوليات مملكته بعبوته إليها ، ولذلك نصح الأميرة بشكل متكرر لاختيار

واحد من النبلاء كزوج لها فتمكن بمشورته وجهوده من حكم الامارة .

كان في المنطقة في ذلك الوقت عدد من الرجال النبلاء والمشهورين الملحقين بمعسكر الملك ، وكان بينهم إيفز دي نسل كونت سواسون ، وهو رجل لامع وحكيم وعاقل وصاحب نفوذ كبير في مملكة فرنسا وولتر دي فولكنبيرغ (٥٦) أمر قلعة القديس أومر ، الذي أصبح فيما بعد حاكما لطبرية وكان رجلا عاقلا ولطيفا وحكيما في المشورة وشجاعا في الحرب ، وأيضا رالف دي ميرال وكان نبيلاً ينحدر من منزلة سامية متمرسا في استخدام الأسلحة ومشهورا بحسه السليم ، وبدا كل واحد من هؤلاء قادرا حقا على حماية المنطقة تماما ، إلا أن الأميرة خافت من عبء الزواج وفضلت الحياة باستقلال وحرية ، ولم تبال كثيرا باحتياجات شعبها وانصب اهتمامها على الاستمتاع بملذات الحياة (٥٧) .

وكان الملك مدركا تماما لميولها، لذلك عقد مؤتمرا عاما في طرابلس تألف من نبلاء المملكة والامارة . ودعا بطريك أنطاكية وأساقفته المساعدين والأميرة مع نبلائها أيضا لحضور هذا المجلس ، وحضرته والدته الملكة ميليساند أيضا بمرافقة أمراء المملكة ، ولاقت مسألة زواج الأميرة الاهتمام بعد أن كانت مواضيع المصلحة العامة قد لاقت عناية شديدة .

ولم يتمكن الملك أو الكونت ولا أقرباؤها ولا الملكة ولا كونت طرابلس ولا عماتها من إقناعها بالتراجع والاحتياط بذلك لنفسها ولننطقتها .

هذا وأشيع أنها موجهة بنصيحة البطريرك ، وبما أنه كان رجلا ماكرا وداهية ، يقال إنه أيدها في هذا الخطأ بغية التمكن من الحصول على سلطة أكبر وتصرف أعظم في حكم المنطقة ، وهو شيء

رغب به رغبة شديدة ، وبما أنه تعذر إنجاز أي شيء بخصوص هذه المسألة رفض الاجتماع وعاد الجميع إلى بلادهم (٥٨) .

١٩ - الملك يجتمع بوالدته في طرابلس في سبيل ايجاد وسيلة للمصالحة بين الكونت وزوجته لكن بدون جدوى وقتل الكونت عند باب المدينة على ايدي الحشيشة

نشبت في هذه الآونة عداوة نبعت من بين كونت طرابلس وزوجته اخت الملكة ميليساند ، وقد حضرت الملكة ميليساند إلى هناك على أمل إنهاء هذه الكراهية ، وفي الوقت نفسه لزيارة ابنة أختها أميرة أنطاكية ، وبما أنها لم تلاق سوى نجاح ضئيل في حل هذه المسألة ، فقد صممت على أن تعيد أختها معها ، وغادرت الاثنتان مدينة طرابلس وهذا الهدف في مخيلتهما ، ورافق الكونت الأميرة في رحلتها لفترة من الزمن ، ثم استأذنها بالانصراف بعد وقت قصير وقفل عائدا . وبينما كان يدخل باب المدينة ودون تفكير بالحوادث الشريرة طعنه الحشيشية بالسيف عند المدخل المؤدي إلى الباب الواقع بين الحصن الأمامي والسور وهلك بشكل محزن ، وقتل معه أيضا رالف دي مارل ذلك النبيل المشهور والمذكور آنفا وأجد فرسانه ، فقد صادف أن كانا مع الكونت في تلك الرحلة .

كان الملك خاليا من المشاغل ، وكان يتمتع نفسه خلال هذا الوقت بلعبة النرد في المدينة ، ولم يكن عارفا بالذي قد حدث ، وثار المدينة بأسرها إزاء نبأ مقتل الكونت ، فأمسك الناس بأسلحتهم وقتلوا بدون تمييز جميع الذين وجدوا أنهم مختلفون سواء في اللغة أو اللباس عن اللاتينيين ، وكان يؤمل بهذه الطريقة أن يتم العثور على مرتكبي العمل الشنيع .

وأثار الغليان المفاجيء انتباه الملك ، وحين علم نبأ مقتل

الكونت ، لم يتمكن من الاحجام عن البكاء والتنهيدات بعدما أحزنه وأله النبأ جدا ، وأمر باستدعاء والدته وخالته على الفور ، ودفنت الجثة لدى عودتهم بإجلال لائق وسط صيحات عويل الجميع ونموعهم ، ووفقا لأمر الملك أدى جميع نبلاء تلك الأجزاء ، يمين الولاء للكونتس وأبنائها .

خلف الكونت ابنا يحمل اسمه أي ريموند ، ولم يكن قد بلغ سن الثانية عشرة من عمره ، وابنة صغرى تدعى ميليساندا ، وعاد الملك بعدما رتب الأمور بهذه الطريقة ، إلى المملكة بصحبة والدته والنبلاء التابعين لبلاطه .

٢٠ - جيش ضخم من الأتراك يزحف ضد القدس للاستيلاء عليها ، لكن المسيحيين يزحفون نحوه ويهزمون به بشجاعة كبيرة .

لم يكن قد مضى بعد هذا وقت طويل عندما قام بعض الحكام الأتراك المعروفين باسم الأراتقة ، وهم رجال أشداء نوو نسب متميز بين شعبيهم ، بجمع عدد كبير من الأتراك وعقدوا العزم على الذهاب إلى القدس للاستيلاء عليها على أساس أنها تخصهم بحق (٥٩) وراثي ، لأنه يقال كانت المدينة المقدسة تنتمي إليهم بحق وراثي قبل أن يحررها المسيحيون ، وكانت والدتهم متحمسة لهذا ، السلوك وأنبت أبناءها لأنهم سمحوا لأنفسهم بالابتعاد لفترة طويلة جدا عن مملكتهم الموروثة .

وبدأوا الزحف بعدما أثارتهم النصائح المستمرة لوالدتهم المسنة ، على رأس عدد ضخم من الفرسان بهدف تحقيق غايتهم المنشودة إذا سمح الرب بذلك ، وتريثوا لفترة من الزمن في دمشق لينعشوا جنودهم ويعززوا قوتهم ، وحاول أهالي تلك المدينة عبثا

صرفهم عن مشروعهم السخيف إلا أنهم رفضوا الاصغاء ، فاستكملوا مؤنهم وأعادوا ترتيب أمتعتهم واستأنفوا زحفهم نحو القدس وكانهم لا يشكون بالنصر ، وعبروا بموكبهم الكبير الأردن وصعدوا المنطقة الجبلية حيث تقع المدينة المقدسة ووصلوا إلى جبل الزيتون الذي يطل على القدس والمتاخم لها . وكان بإمكانهم أن يروا بدون عوائق جميع الأماكن المقدسة وخاصة هيكل الرب ، الذي كانوا يوقرونه بشكل خاص ، واشتمل المنظر بالفعل على المدينة بأسرها .

وكانت معظم القوات المسلحة للمنطقة قد ذهبت إلى نابلس لأنها خشيت من احتشاد العدو هناك لأن المدينة نفسها كانت بلا تحصينات ، وعندما رأى الناس ، الذين تركوا في القدس جيش الأتراك يتقدم خافوا من أن ينحط عليهم بالحال ، فأمسكوا بأسلحتهم على الفور وتقدموا بحماسة نحو الأعداء ملتجئين المساعدة من السماء ومتهفنين للاشتباك معهم .

إن الطريق التي تنزل من القدس إلى أريحا ومن ثم إلى الأردن طريق وعرة جدا وخطيرة ، حيث أن الأماكن الكثيرة المنحدرة والشاهقة تجعل كلا من الصعود والنزول صعبا جدا بالنسبة للمسافرين حتى عندما يكون الطريق آمنا ولا يوجد أي سبب للخوف ، وعندما نزل العدو هذا الطريق ، انقضت المسيحيون بعنف عليه وجعلوه يلوذ بالفرار بذعر ، فقتل الكثيرون مباشرة وهلكوا بدون مساعدة السيف حيث لم تقدم الجرف والشعاب الضيقة أي ممر سهل للهاربين ، وحاول بعض الذين كانوا قد سلكوا الطرق الأكثر تمهيدا أن يواصلوا هروبهم لكنهم واجهوا هناك أيضا سيوف المسيحيين وأصيبوا بجراح مميتة ولاقوا موتا مفاجئا ، وبما أن مصاعب الزحف الطويل قد أنهكت خيولهم فإنها لم تتمكن من تحمل الطريق الوعرة وأصبحت بالاعياء التام ، ورفضت الازعان للممتطيها ، واضطر الأتراك بالتالي أن يصبحوا جنودا مشاة ،

وأنقلت أسلحتهم كاهلهم ، ولم يكونوا معتادين على المشقات أبدا ، فقتلوا كالفنم بسيف مطارديهم ، وكانت المذبحة التي تعرض لها الجند والخيول فظيعة جدا إلى درجة أعاققت تقديم المسيحيين ، ومع ذلك فقد حاولوا بتلف زائد تحقيق المزيد من المنافع ، ومروا بجانب المغنم محتقرين التفكير بأخذها وواصلوا المذبحة الرهيبة لأن الاغتسال بدم العدو كان يعتبر المكافأة الأسمى .

حالما علم الناس الذين كانوا قد اجتمعوا في نابلس ، بزحف العدو لمهاجمة القدس غادروا بإرادة واحدة واندفعوا نحو مخاضات الأردن لمنع الأتراك من العبور ، وهاجموا على ضفته الذين كانوا قد نجوا من مطارديهم وباغتوهم فجأة وقتلوهم ، لقد كانت يد الرب ثقيلة على أعدائنا بالفعل في ذلك اليوم ، لأنه كما هو مكتوب : « أكل الجراد ماتركته بيدان الأشجار المثمرة » (٦٠) . فقد قتل الذين كانوا قد نجوا من مطارديهم بفضل سرعة خيولهم أو بطريقة أخرى ، بسيف المسيحيين الذين هاجموهم من اتجاه آخر . والتقت الأمواج الهائجة الآخرين الذين كانوا قد دخلوا الأردن قبل القوات الرئيسية وذلك بسبب جهلهم بالمخاضات وغرقوا في النهر ، وهكذا عاد الجيش ، الذي كان قد دخل بآلاف كثيرة ، وهو قوي متفائرا بقدراته المعتمدة على قوة الفرسان عاد إلى بلاده بعدما تحول إلى جيش ضئيل اكتنفه الاضطراب والذعر ، ويروى أن نحو خمسة آلاف من العدو قتلوا في ذلك اليوم .

حدث هذا في اليوم التاسع قبل أول شهر كانون الأول أي في / ٢٣ / تشرين الثاني من العام ١١٥٢ لتجسيد الرب وفي العام التاسع لحكم بلديون الملك الرابع للقدس (٦١) .

عاد المسيحيون إلى القدس ليقدموا القربان المقدس لصلاة الشكر للرب وهم حاملون بأسلاب العدو ويسوقون أمامهم الكثير من الغنائم على شكل قطعان .

٢١ - عودة الملك ونبلاء المملكة إلى عسقلان بهدف اجتياح البساتين التي تحيط بالمدينة . تطويرهم لخططهم الأصلية ومحاصرة المدينة .

أثار هذا الانتصار الذي منحه التأييد السماوي آمال المسيحيين كثيرا ، ولذلك قرروا جميعا ، والرب يوجه أهدافهم ، حسب رغبة الوضيع والعظيم محاولة الحاق الأذى بطريقة ما بأعدائهم الموجودين في تلك المنطقة المجاورة الذين كانوا قد سببوا لهم متاعب خطيرة في أحوال كثيرة ، أي : أهالي مدينة عسقلان .

بدا ان الخطة الأكثر ارضاء للوقت الحالي هي محاولة تدمير البساتين الواقعة في المنطقة المجاورة لمدينة عسقلان بقوة قوية ، وكانت هذه البساتين ذات أهمية كبيرة للسكان ويمكن بهذه الطريقة الحاق بعض الخسارة بالعدو المتفطرس . وجرى - وهذا الهدف بالمخيلة - حشد كافة قوة المملكة بأعداد ضخمة أمام المدينة المذكورة منذ لحظات . وشعروا أن هذه الخطة ستكفي إذا أمكن انجازها بنجاح .

رافقت الرحمة السماوية بشكل مدهش المسيحيين المحتشدين امام تلك المدينة ، وبدأت تدفعهم فجأة إلى أشياء أعظم ولم يكن قد مضى وقت طويل على اتخاذ قواتنا لموقعها أمام المدينة عندما استولى الذعر على سكانها وانسحبوا بسرعة كبيرة إلى داخل المدينة ، ولم يجرؤ أي رجل على المغامرة بالظهور خارج الأسوار لمواجهة جنودنا ، ولذلك قرر المسيحيون وقد استفادوا من حالة الذعر التي سيطرت على العدو أن يحاصروا المدينة توجهم الرحمة السماوية في ذلك ، وجرى على الفور ارسال الرسل إلى كل مكان في المملكة للاعلان عن الخطة التي ألهم الرب بوضعها ولاستدعاء الذين كانوا قد بقوا في منازلهم وأن لا يتأخر أحد عن الحضور في اليوم المحدد .

اجتمع الناس ، الذين تم استدعاؤهم ، بابتهاج وبدون تأخير ، وانضموا إلى رفاقهم الذين كانوا قد سبقوهم وخيموا مع الآخرين حول المدينة ، وتعهدوا واحدا تلو الآخر بيمين مهيبة أنهم لن يتخلوا عن الحصار حتى يتم الاستيلاء على المدينة ، وحتى يبقى الجميع مخلصين في مشروعهم وبدون تفكير بالتردد ، خيم الملك والبطريك مع بقية نبلاء المملكة العلمانيين والكنيسيين على حد سواء ، وبرفقة شارة صليب الصليب المقدس و المانح للحياة أمام مدينة عسقلان في ظل بشائر ميمونة . وذلك في اليوم الثامن قبل بداية شهر شباط ، (٦٢) وكان ذلك بعدما جرى حشد قوة المملكة كافة ، وبعد اجتماع الناس على هدف واحد.

حضر هذا الحصار رجال الكنيسة التالية أسماؤهم : اللورد فولتشر بطريك القدس ، وبترس رئيس أساقفة مدينة صور ، وبلدوين رئيس أساقفة قيسارية ، وروبرت رئيس أساقفة الناصرة وفريدريك أسقف عكا وجيرالد أسقف بيت لحم ، وحضره بعض رعاة الأديرة أيضا ، كما حضره كل من برنارد دي تريملي مقدم فرسان الداوية وريموند مقدم فرسان الاسبتارية .

وكان من بين الأمراء العلمانيين الحاضرين كل من هيودي ابلين وفيليب صاحب نابلس وهمفري صاحب تيربون ، وسيمون صاحب طبرية وجيرارد صاحب صيدا وغي صاحب بيروت وموريس صاحب مونتريال (الشوبك) ورينو دي شاتليون (أرناط) وولتر أوف سانت أومر ، وقد عمل الأخيران بالدفع لمصلحة الملك (٦٣)

نصبت الخيام ورتبت على شكل دائرة ، وخصصت مراكز محددة ومناسبة لكل شكل ثم انكبوا باخلاص على العمل قيد الاعداد بازلين بحكمة وتعقل الجهود التي كانت تتطلبها مهمة خطيرة من هذا القبيل.

٢٢ - وصف موقع المدينة وتبيان مزاياها

تعتبر عسقلان إحدى مدن الفلسطينيين الخمس ، وهي واقعة على ساحل البحر على شكل نصف دائرة يمتد قطرها على طول الشاطئ ، بينما يقع قوسها على المنطقة المطلة نحو الشرق ، وتستقر المدينة بأسرها في حوض يميل إلى البحر وتحيط به دفاعات اصطناعية من جميع الجهات ترتفع فوقها الأسوار مع أبراج على مسافات متوالية ، وكلها مشيدة ببناء صلب ملصق مع بعضه بملاط أشد قساوة من الحجر ، كما أن الأسوار واسعة وذات سماكة جيدة وارتفاع مناسب ، وعلاوة على ذلك ، فإن المدينة مطوقة بتحصينات خارجية مبنية بالمتانة ذاتها ، ومحصنة بعناية بالغة ، ولا توجد أية أنهار ضمن حدود الأسوار ولا توجد أية بنايات مجاورة ، إلا أن الأبار الموجودة خارج المدينة وداخلها تقدم زادا وفيرا من الماء العذب المناسب للشرب ، وكاحتياط إضافي أقام السكان صهاريج في داخل المدينة لتلقي مياه الأمطار .

يوجد أربعة أبواب في محيط السور ، محصنة بقوة بأبراج عالية وضخمة ، ويدعى الباب الأول من هذه الأبواب وهو المواجه للشرق باسم الباب الأكبر ، ويسمى أحيانا باسم باب القدس لأنه موجه نحو مدينة القدس ، ويعطوه برجان عاليان جدا يقدمان حماية قوية للمدينة في الأسفل ، ويوجد في خط الدفاع الأمامي الموجود أمام هذا الباب ثلاثة أو أربعة أبواب صغيرة ينتقل المرء خلالها إلى المدخل الرئيسي بواسطة طرق ملتوية مختلفة .

يواجه الباب الثاني جهة الغرب ، ويعرف باسم باب البحر لأن الناس يحصلون من خلاله على مخرج إلى البحر ، ويقع الباب الثالث إلى الجنوب ويطل على مدينة غزة التي تمت الإشارة إليها آنفا ويشترك اسمه منها . ويسمى الباب الرابع المطل نحو الشمال

بباب يافا اشتقاقا من اسم المدينة المجاورة التي تقع على هذا الساحل نفسه .

هذا ويلاحظ أن عسقلان قائمة في مكان غير موئم وذلك انطلاقا من حقيقة أن موقعها لا يوفر ميناء أمنا للسفن ، والشاطئ رملي جدا والرياح العنيفة تجعل البحر المجاور عاصفا إلى حد أن البحريين إليها لا يقتربون منها إلا في جو هادئ جدا .

كما أن تربة الحقول المحيطة بالمدينة مغطاة بالرمل لذلك فهي ليست موائمة للزراعة ، ومع ذلك ، فهي مهيأة بشكل جيد لزراعة الكروم والأشجار المثمرة ، هذا وتوجد بضعة أودية في الشمال تزود سكان المدينة بكميات من الفواكه والخضار وذلك عندما يتم تسميدها بشكل جيد وأروؤها بالماء من الآبار .

يوجد عدد كبير من السكان في تلك المدينة يتلقى الوضيع والرفيع منهم ، وحتى الأطفال الرضع ، رواتبا من بيت مال خليفة مصر وذلك حسبما ذكرته الروايات المتداولة ، وشعر ذلك الملك وأمراؤه بقلق بالغ حول عسقلان لأنهم كانوا مسركين أنه إذا سقطت المدينة ووقعت في سلطة المسيحيين فلن يكون هنالك شيء يمنع قانتنا من غزو مصر دون عائق والاستيلاء على تلك المملكة بالقوة .

لذلك اتخذوا عسقلان بمثابة حصن وزودوها عن طريق البر والبحر بمساعدة سخية أربع مرات في العام (٦٤) ، فقد كان بإمكان المصريين أنفسهم الاستمتاع بالسلام المنشود طالما صمدت عسقلان وبدد شعبها جهودهم الحماسية عندها ، ولذلك زودوا المدينة بذفقة كبيرة بكل ما هو ضروري وأرسلوا الأسلحة والمواد الغذائية والجذود الجدد على فترات انتظامية منفصلة وكان قلق المصريين إزاء قوتنا المروعة قد خف لبعض الوقت عندما كان المسيحيون منسغلين في عسقلان

٢٣ - بدء عمليات الحصار . وتعيين قادة في إمرة الأسطول والجيش البري أيضا .

قاومت عسقلان كل المحاولات التي بذلناها وأظهرت نفسها منافسة هائلة لنا لمدة خمسين عاما ونيفا مضت ، بعدما كان الرب قد منح بقية أرض الميعاد إلى أيدي الشعب المسيحي ، وأخيرا قرر المسيحيون تطويق المدينة ، وكان هذا عملا شاقا وشبه مستحيل ، لأن عسقلان كانت محصنة بشكل جيد بالأسوار والحصون الأمامية والأبراج والسدود ومجهزة بكمية ضخمة من الأسلحة والمؤن ، أضف إلى هذا أنه كان فيها عدد كبير من السكان كانوا مدربين بشكل جيد ومتمكنين تماما من استخدام الأسلحة ، وبالفعل فإن عدد المدافعين كان ضعف الجيش المحاصر منذ البداية ذاتها وحتى النهاية .

نصب الملك والبطريك وسلفنا رئيس أساقفة صور ، مع رجال عظماء آخرين من الملكة والأمراء وأساقفة الكنيسة وسكان جميع المدن خيمهم على حدة وحاصروا المدينة من ناحية الير . ووضع الأسطول المؤلف من خمس عشرة سفينة والمجهز للابحار بقيادة جيرارد صاحب صيدا ، وكان واحدا من نبلاء الملكة العظماء (٦٥) ، وتوجب عليه أن يمنع أي تقدم من البحر وأن يحبط جميع المحاولات للخروج من المدينة أيضا ، وشن شعبنا هجمات على المدينة قام بها الفرسان أحيانا والجنود المشاة أحيانا أخرى بشكل عفوي تقريبا ، لكن سكان المدينة واجهوا هذه المحاولات بشجاعة وقاوموها بقوة ، حيث كانوا يقاتلون دفاعا عن زوجاتهم وأبنائهم ، والأهم من ذلك ، عن حريتهم نفسها ، وكان النصر في هذه الاشتباكات تارة من نصيب السكان ومن نصيب المسيحيين تارة أخرى كما يحدث عادة في ظروف كهذه ، لكن النصر غالبا ما كان من نصيب قواتنا بشكل عام .

وقيل إن أمنا كبيرا ساد في ذلك المعسكر ، كما توفرت فرص كبيرة لشراء جميع أنواع السلع حيث عاش الناس في خيمهم وسراقاتهم كما كانوا معتادين على عمل ذلك في الوطن ، في مدنهم المسورة .

قام سكان المدينة بحراسة مدينتهم بعناية ، خاصة ليلا ، واستخدمت أبدال الحراس ، وشارك حتى الرجال القادة في المدينة في حراسة الأسوار ، وأمضوا الجزء الأكبر من الليل بلا نوم ، ووضعت مصابيح زجاجية تعمل على الزيت وكانت مزودة بأغلفة شفافة لحماية لهبها على طول الأسوار وعلى شرفات الأبراج ، وأضاعت هذه المصابيح المكان في الليل حتى بدا كالنهار وساعدت الحرس أثناء قيامهم بالجولات على الأسوار .

واحتاط حرس مختلف فرق المعسكر المسيحي لحماية جنودنا أيضا ، ولم تتوقف الحراسة أبدا لأنه كان يخشى من أن السكان قد يهاجمون المعسكر تحت غطاء الظلام ، وكان هناك خطر من أن المصريين الذين كانوا يحدثون الخطى لمساعدة عسقلان قد ينقضون فجأة وبشكل غير متوقع على الجيش وذلك على الرغم من أن عناصر الاستطلاع كانت قد وضعت في مواقع كثيرة حول غزة لتقدم الانذار في الوقت المناسب من تقدم العدو .

٢٤ - عبور حجاج خلال شهر الحصار الثاني ، كان هذا مفيدا جدا ومساعدة على استئناف الحصار .

استمر الحصار لمدة شهرين دون تغيير ، وحدث العبور المألوف في حوالي عيد الفصح حيث جلب أعدادا كبيرة من الحجاج إلى هناك ، وأرسل المسيحيون ، بعد تداولهم مع بعضهم بعضا ، رسلا من الجيش يحظرون بأمر من الملك على جميع البحارة والحجاج العودة إلى الوطن ، ووجهت الدعوة إلى الجميع - على أساس دفع

الأجور - للمشاركة في الحصار ، وهو عمل مقبول جدا من الرب(٦٦) ، وصدرت الأوامر الى جميع السفن كبيرها وصغيرها بالابحار الى عسقلان. وهكذا وصلت جميع السفن ، التي كانت قد قدمت في ذلك العبور ، الى أمام المدينة في غضون أيام قليلة جدا ، بعدما زالت من سرعتها ربيع مواتية ، وانضمت الى صفوفنا قوات كبيرة من الحجاج الفرسان والمشاة ، وهكذا ازدادت قوة الجيش يوما بعد يوم ، وأصبح السرور في معسكرنا عظيما والأمل بنيل النصر كان أملا بلا حدود.

وعلى عكس ذلك انتشر القلق والاسى بشكل متزايد دوما بين صفوف العدو ، وبدأت تقل ثقة أفرادهم بقوتهم الخاصة وقل ظهورهم للقتال على الرغم من أنهم كانوا قد نحدونا ودعونا للقتال قبل ذلك مرارا. والتمسوا من الخليفة المصري مرارا وتكرارا ارسال المعونة لهم بالسرعة الممكنة ، والا لا بد لهم من الاستسلام حالا ، وبناء عليه اتخذ الخليفة اجراءات فعالة لنجدتهم ، وأمر الاعيان المسؤولين عن عمل كهذا بنجهيز اسطول وجمع الجيش ، وحمل السفن الطويلة بالأسلحة والمؤن والآلات الحربية ، وعين القيادة واحتاط للمستلزمات الضرورية وحث في تلك الأثناء على السرعة وأنب على التأخير.

كان المسيحيون في هذه الأثناء قد اشتروا سفنا بمبالغ كبيرة وازالوا سواريتها ، ثم جرى استدعاء الصناع وصدرت اليهم الأوامر ببناء برج عال جدا من الخشب ، وتمت حماية هذا البرج بعناية من خطر الحريق وحوادث مشؤومة أخرى بواسطة الستائر المجدولة وجلود الحيوانات المدبوغة من الداخل والخارج على حد سواء بحيث يكون المقاتلون الذين توجب عليهم مهاجمة المدينة سالمين تماما ، واستخدمت المواد الخشبية الزائدة عن السفن لانشاء آلات القذف التي وضعت بعدئذ في مواضع استراتيجية لقصف

الأسوار ، كما صنعت أيضا السقائف المغطاة من المادة نفسها بحيث يمكن ، تحت حمايتها ، الاقتراب من السدود وتدميرها بسلام ، وجرى إعداد جميع هذه الاستعدادات بشكل موائم ثم حدد بعناية تعيين قطاع السور الذي يمكن أن تطبق عليه آلات القذف الحربية بسهولة أكبر ، وبعدها تم تدمير الجزء الأكبر من السد كما ذكرت أنفا نقل البرج مصحوبا بصيحات عالية ، والصق بالأسوار ، وأمكن الحصول من قمة البرج على منظر للمدينة بأسرها ، ونشب قتال متلاحم مع المدافعين الموجودين في الأبراج المجاورة ، هذا ، واستخدم سكان المدينة الآن قسيهم وسهامهم بشجاعة وإصرار من الأسوار تارة ومن المتاريس أحيانا لانهاك المحجوبين في داخل الأبراج المتحركة ، غير أن جميع جهودهم كانت عقيمة لأنهم لم يتمكنوا من الحاق الأذى بالذين كانوا يدفعون الآلة الحربية الى الأمام ، ثم احتشد عدد ضخم من المدافعين عند جزء السور المقابل للبرج ، وصدرت الأوامر الى الأشخاص الأكثر شجاعة بينهم باختبار قوتهم هنالك في قتال مستمر الى جانب المهاجمين الموجودين في البرج المتحرك .

وتواصل في الوقت نفسه القتال المستمر في مواقع مختلفة ومن مكان الى آخر على طول الأسوار ، ونادرا ما مر يوم دون أن تقع مجزرة ، وذلك بصرف النظر عن عدد الجرحى الكبير في الجانبين ، ولقد سمعنا قصصا عن أعمال بارزة قام بها بعض الأفراد في ذلك الحصار ، وعن الشجاعة الملحوظة التي أظهرها العدو والمسيحيون ، غير أنه لا يمكن إعطاء سوى اهتمام بسيط لخوادث من هذا النوع لأننا ندون تاريخا عاما .

٢٥- وصول الأسطول المصري الى عسقلان خلال الشهر الخامس من الحصار ، وهو حدث قدم مواساة كبيرة للمحاصرين .

صمد قابتنا لمدة خمسة اشهر متتالية في الحصار ، وكانت قوة العدو قد بدأت تضعف بعض الشيء بشكل واضح ، وبسبب إمكانية الاستيلاء على المدينة أكثر اشراقا مما هو مألوف عندما ظهر الأسطول المصري فجأة أمام المدينة بعدما حملته ريح مواتية ، ورفع أهالي عسقلان أيديهم الى السماء عندما رأوا الأسطول وصرخوا بصيحات عالية أن المسيحيين سيتراجعون الآن أو سيهلكون على الفور ، وعندما لاحظ جيراد صاحب صيدا قائد الأسطول المسيحي ان السفن تقترب من المدينة حاول إعاقة تقدمها بمهاجمتها بعدد صغير من الشواني التي كان يقودها ، الا انه انعطف في آخر الأمر راجعا بعدما أرعبته أعداد العدو الكبيرة ، ثم لاذ بالفرار حرصا على حياته وسلامته .

أبحرت قوات العدو بشجاعة الى المدينة وهي تحمل المساعدة للمحاصرين التي تأجلت لفترة طويلة من الزمن ، وكان الأسطول ، حسب ما ذكرته إحدى الروايات ، مؤلفا من سبعين شينى وبعض السفن الأخرى المحملة الى الحد الأقصى بالجند والأسلحة والمواد الغذائية ، وكانت السفن ذات حجم ضخم أرسلها الخليفة المصري ، المذكور آنفا ، لمساعدة المدينة ، وبدأ العدو ، الذي تعزز بهذا الشكل ، يقوم بأعمال القتال مجددا وتحذانا الآن بقوة متجددة وبشجاعة أكثر وبتكرار للقتال ، وكان السكان أنفسهم الذين عرفوا تماما شجاعة جنودنا حزينين الى حد ما ، غير أن العناصر الأكثر قسوة والقادمين الجدد كانوا متعطشين لتحقيق المجد وتلهفوا لآظهار قوتهم وشجاعتهم فاندفعوا الى القتال دون حذر فقتلوا بأعداد كبيرة حتى تعلموا تسديد هجماتهم بحذر

أكثر ، وتحمل هجماتنا بهدوء أكبر بعدما امتحنوا الشجاعة الثابتة للمسيحيين .

٢٦- زواج كوندستانس أميرة انطاكية من رينودي شاتليون (أرناط) . استيلاء نور الدين على مملكة دمشق بالقوة . تعيين أمالرك في كنيسة صيدا .

وبينما كانت هذه الأحداث تقع في المعسكر أمام عسقلان أقدمت السيدة كوندستانس أرملة ريموند أمير انطاكية التي كانت على غرار عادة النسوة قد رفضت قبول العديد من النبلاء البارزين ، أقدمت سرا على الزواج من أرناط ، الذي كان فارسا مرتزقا في خدمة الملك ، هذا ويلاحظ أنها لم ترغب بإعلان هذا الزواج على الملاح حتى تكون قد ضمننت قرار الملك ابن خالتها وموافقته حيث كانت إمارتها تقع تحت حمايته ، وبناء عليه أسرع أرناط الى الجيش لينقل نيتها الى الملك ، وعاد الى انطاكية بعد ان حصل على موافقته وتزوج الأميرة ، ومع ذلك ، فقد دهش كثيرون من رؤية امرأة بارزة جدا ومشهورة وقوية تتنازل بعدما كانت زوجة لرجل بارز جدا ، فتنزوج من فارس عادي (١) .

علم في هذه الأونة نور الدين ، الرجل العاقل والنافذ البصيرة ، بوفاة أنر(٦٨) والد زوجته . وكان هذا الرجل البارز الذي كان قائدا عاما للجيش الدمشقي ومدبرا لأمور الملك ، قد قاوم بقوة جميع مشاريع زوج ابنته ، وكان نور الدين عارفا ان ملك القدس كان منشغلا مع جميع فرسان المنطقة في محاصرة عسقلان لفترة من الزمن ، وشعر بثقة أن بلدوين لن يتخلى عن ذلك المشروع تلقائيا للاستجابة لمناشدات الدمشقيين لمساعدتهم ضده . وهكذا انتهز الفرصة وزحف الى دمشق بجيش كبير للاستيلاء على المملكة بقوة ، هذا وقد استقبله الناس بتأييد واستسلموا له طوعا لأنه

أطاح بحاكمهم ، حيث كان رجلا فاسقا وتافها ، وأجبره على الفرار الى الشرق فأصبح لاجئا ومنفيا على سطح الأرض ، وكان هذا التغيير مشؤوما بلا جدال بالنسبة لمصالح المملكة ، فقد برز خصم مرعب بدلا من رجل بلا سلطة جعله ضعفه غير مؤذ للمسيحيين ، وقد استمر يدفع اليهم جزية سنوية حتى هذا الوقت ، لأنه كما قيل : « كل مملكة منقسمة على ذاتها تخرب » (٦٩) وتبعاً للكلمات مخلصنا تميل ممالك كثيرة حين تتحد لكسب القوة من بعضها وتظهر بقوة أكبر ضد عدو مشترك .

ورغب نور الدين بعدما استولى على دمشق وأخضع المنطقة المجاورة بأسرها ، أن يساعد عسقلان بالقدر الممكن له ، من مسافة كهذه ، فأقدم على حصار مدينة بانياس مستفيدا من انشغال المسيحيين ، حيث كانت تقع هذه المدينة عند الحد الأقصى للمملكة ، وأمل أن شعبنا سيتخلى عن حصاره لمدينة عسقلان عند استدعائه لنجدة مدينة بانياس المحاصرة ، غير أن أماله العظيمة لم تتحقق برحمة الرب التي كانت توجهها ، ولم تنجح أي من مشاريعه أيضا لأنه أخفق في حصاره لمدينة بانياس ، وأجبر المسيحيون مدينة عسقلان على الاستسلام بمعونة الرب (٧٠) .

توفي في هذه الآونة أيضا برنارد أسقف صيدا نو الذكرى المباركة وعين أمالرك نو الذكرى الورعة في الرب عوضا عنه ، وكان أمالرك راعي الكهنة النظاميين لرهبة بريمونستراتينياس في دير القديس جوزيف أوف أريماثيا ، وكان رجلا مخلصا يخاف الله وصاحب حياة ورعة ، وحيث أنه لم يكن ليسمح لأي امرئ بالذهاب الى مسافة بعيدة عن المدينة المحاصرة ، فإنه تلقى كما يقال منحة الترسيم في الكنيسة في اللد على يدي بطرس رئيس أساقفة صور ذي الذكرى الموقرة .

٢٧- المحاصرون يشنون هجوما عنيفا على المدينة . السكان يحاولون إحراق الآلة الحربية الموجودة خارج الأسوار . انهيار جزء من سور المدينة . مقتل بعض المسيحيين أثناء محاولتهم الاندفاع الى المدينة . جيشنا يتخلى عن الأمل .

وأخذ في هذه الأثناء الذين كانوا منشغلين في هذه الحملة مشروعهم بقوة كبيرة واستأنفوا شن هجمات شديدة على المدينة دون انقطاع ، وكان هذا هو الوضع السائد بشكل خاص حول الباب الكبير ، كما كان يسمى ، حيث تجددت الهجمات مرارا وتكرارا مع نتائج ذات شؤم شديد على السكان ، وهدد وابل الصخور الضخمة المقنوفة من آلات القذف الحربية بإضعاف الأسوار والأبراج وبذسف المنازل عن بكرة أبيها داخل المدينة ، وكانت المذبحة الناجمة مذبحة كبيرة ، كما أحدث الجنود الموجودون ضمن البرج المتحرك إبادة كبيرة بقسيهم وسهامهم ليس على المدافعين الذين كانوا يقاومونهم من قمة الأبراج والأسوار فقط ، بل أيضا على الذين اضطروا بحكم الضرورة للتحرك حول المدينة ، وبدت المحن التي تحملها السكان في مواقع أخرى مهما كانت شاقة ، محنا خفيفة بالمقارنة مع المصائب التي انصبت عليهم من هذا البرج .

ولهذا تداولوا فيما بينهم وضمموا على تدمير تلك الآلة الحربية مهما كان الخطر وكانت المغامرة، مستفيدين بذلك بشكل خاص من نصيحة الذين كانت لهم تجربة كبيرة في مسائل من هذا النوع ، واستلزم الأمر القاء الأخشاب الجافة ومادة أخرى مؤاتمة لاضرام النيران وتأجيج السنة اللهب بين السور والبرج ، وتوجب احراق هذه المواد خلاسة فيحترق البرج ، وكان قد بدا أنه لا يوجد أي أمل آخر كما لم تبق لديهم الشجاعة للمقاومة لفترة أكثر من ذلك ، حيث سقطوا الآن الى هاوية اليأس .

استجاب بعض الرجال الشجعان المشهورين بقوتهم وإقدامهم رجالا كانوا قد اعتبروا سلامة أبناء مدينتهم أهم من سلامتهم ، للمناشدة على الفور وعرضوا أنفسهم للقيام بالمهمة الخطرة ، ونقل الخشب الى قسم السور الذي كان في الموقع الأكثر قربا للبرج وألقي في الفراغ الموجود في الخارج بين السور والآلة الحربية ، وعندما كدسوا كومة كبيرة من الحطب كانت كافية بتقديرهم لاحتراق البرج ، صبوا القار عليها والزيت وسوائل اخرى تزيد الحريق وأي شيء سيزيد من عنف الحريق ، وما أن أشعلوا النيران حتى تحولت الرحمة السماوية نحونا لأنه بالرغم من أن السنة النيران ازدادت كلها نحو الأسوار ، ثم دفعت هذه الرياح يضراوتها الخاصة الناس الى السور ، وتولت عاصفة متواصلة استمرت طوال الليل تحويل السور الى رماد ، وفي حوالي الفجر انهار جزء كامل من السور واقع بين البرجين وأحدث ضجة أيقظت الجيش بأسره .

واصطدمت الكتلة عندما سقطت بالبرج بقوة كبيرة لدرجة أن بعض الأجزاء الضرورية من الآلة الحربية ، التي لم تتمكن النيران الحربية من الحاق الأذى بها ، قد تحطمت ، وسقط الحرس ، الذين كانوا يقومون بواجبهم على سطح البرج وفي المناطق البارزة منه ، الى الأرض تقريبا ، فأمسك الجيش بأسره بأسلحته بعدما أيقظه صوت الانهيار ، وانذفع الى الموقع وهو متلهف للدخول حالا وكأنما السماء قد فتحت مدخلا له . وكان برنارد دي ترميلي مقدم الداوية قد وصل مع اخوانه الى هناك قبل البقية بسوقت كبيرة واستولى على الفتحة ، ولم يسمح لأحد غير جنوده بدخولها ، واتهم بأنه اقصى الباقيين حتى يتمكن شعبه من الحصول على الجزء الأكبر والأثمن من الأسلاب والغنائم (٧١) ، كونه أول من دخل الفجوة ، لأن العادة حولت الأمر قانونا بين المسيحيين حتى يومنا هذا أنه عندما يتم الاستيلاء بهجوم على المدينة ، فإن أي شيء يستولي المرء عليه لدى الدخول يستطيع ان يحتفظ به بحق دائم

لنفسه وورثته ، ولو كان الجميع قد دخلوا في فرصة واحدة ، لأمكن الاستيلاء على المدينة ولكانت المغانم كافية للجميع ، لكن « من النادر أن تكون هنالك نهاية حميدة لمشروع سيء في بدايته وفاسد في غايته » لأن « المكسب المحقق بطريقة غير شريفة لا ينتج نتائج جيدة (٧٢) » لقد رفضوا بسبب الطمع أن يسمحوا لرفاقهم أن يشاركوهم في الغنيمة ، ولذلك تحملوا بعدل خطر الموت وحدهم ، حيث لم يدخل سوى حوالي الأربعين رجلا ولم يتمكن الباقون من اللحاق بهم .

كان السكان حتى هذا الحين قد خافوا على أرواحهم بالذات وكانوا مستعدين لتحمل اجراءات شديدة بدون مقاومة ، لكنهم انقضوا على هؤلاء الجنود الأربعين بعدما أركوا أنهم انعزلوا عن رفاقهم وهاجموهم بقوة وشجاعة متجدتين وقتلوهم ، ثم حشدوا قواتهم وأمسكوا بالأسلحة وكانما بعثت الشجاعة فيهم مجددا بعدما كانوا قد تخلوا عنها وكانهم قد هزموا ، واندفعوا جميعهم الى الموقع الذي كان السور قد انهار فيه وسدوا الثغرة هناك بربط عوارض عملاقة مع كتل خشبية ضخمة مما وفرت السفن مقدارا كبيرا منه ، وجعلوا الموقع منيعا بحماسة بالغة .

ثم استعدوا للمعركة وجددوا القتال بعد أن عززوا الأبراج الواقعة بجانب المنطقة المحروقة على الجانبين ، والتي كانوا قد تخلوا عنها بسبب أسنة النيران العنيفة ، وتحذونا للقتال طوعا منهم وكانهم نسوا الهزائم السابقة التي ألحقت بهم ، هذا ولما شعر المقاتلون الموجودون في البرج والعارفون أن أسسه قد وضعت وأن الجزء السفلي من الاطار الصلب قد اصيب بأضرار بالغة فقدوا الثقة وحاربوا بالتالي بقوة قليلة .

ولكي يحطم الأعداء معنوياتنا علقوا جثث قتالنا بالحبال من شرفات السور واطهروا الابتهاج الذي كانوا يشعرون به باطلاق كلمات واشارات السخرية ، غير أن حزننا عميقا حل بسرعة محل

هذا الابتهاج ، وأظهرت الحوادث التي تلت بوضوح كم هو صحيح
المقول القائل : « قبل الكسر الكبرياء وقبل السقوط تشامخ
الروح » (٧٣)

وعلى العكس ، كان المسيحيون مقهورين عقلا وقلبا ، وتغلب
الحزن عليهم ، وضعفت أرايتهم بمرارة الروح ، وفقدوا كل أمل
بانتصار جوهرى .

٢٨- المسيحيون يطمئنون مجددا . ويتشجعون
لمواصلة الحصار ويثابرون بحماسة أكبر من قبل .

في هذه الاثناء جمع الملك الزعماء بعدما روعته الكارثة
الفظيعة ، وعندما اجتمعوا في خيمته (وكان من بينهم البطريرك
ورئيس أساقفة صور ومطارنة الكنيسة والآخرين) وضع أمامهم
صليب الصليبات المانح للحياة واستفسر بقلق عما يجب عمله في مثل
هذا التغيير الكبير للحظ ، وعندما كانوا يتداولون بقلق بالغ ،
وبخوف من الرب نشأ انقسام بالرأي شطر المؤتمر الى فريقين حيث
أكد بعض المشككين بقوتهم للفوز بالمدينة وبيدوا انهم كانوا
قد ضيعوا جهودهم عبثا لفترة طويلة من الزمن هناك ، وكانت
قواتهم قد قتلت بأعداد كبيرة وجرح القادة أو أسروا ونفدت حتى
مواردهم ، وأكفوا أن المدينة كانت منيعة وأنه كان لدى السكان
وفر من كل السلع ، وأن قوتهم تتجدد باستمرار بينما كانت قوتنا
تضعف ، ونصحوا بالعودة .

وأثار آخرون ، كانوا ذوي تفكير أرشد بالمتابعة أملين برحمة
الرب الذي لم يكن راغبا بالتخلي عن النين كانوا يثقون به بصبر
ورع ، وقالوا أنه مامن فائدة بالنسبة لأي مشروع له بداية جيدة
مالم يصل الى نهاية مشابهة ، فقد تم بالفعل استخدام وقت كبير

ونفقة عالية ، الا ان ذلك كان مع الامل بتحقيق جزاء أكثر وفرة لم يحرمهم الرب منه على الرغم من أنه بدا مؤجلا ، لقد انهزمت قواتهم بالفعل ، ومع ذلك فقد بقي لديهم الامل في انهم سيجدون بعثا متألقا لان الوعد للمؤمنين هو : « سيتحول حـزنكم الى فرح (٧٤) » و « اسألوا تعطوا » (٧٥) ونصحوا ، وهم يفكرون بهذه الطريقة ، بعدم العودة وناضلوا لاقناع المسيحيين بالمواظبة كجنود أقوياء في هذه المهمة ، وأيد غالبية الأمراء المدنيين رأي الزمرة الأولى ، وبدا الملك أنه ميال نحو ذلك الرأي أيضا بعدما أرقه القدر المعاكس .

واتفق مع الزمرة المعاكسة كل من البطريرك ورئيس أساقفة صور وجميع الكهنة وأيضا ريموند مقدم الاستبارية مع اخوانه .

وهكذا ، انقسم الاجتماع وقدم الجميع حججا متنوعة تؤيد الآراء المعاكسة ، غير أن الرحمة السماوية الموجودة معهم دائما ، جعلت رأي البطريرك يفوز لأنه بدا له ميزة كبرى ووعد بتحقيق مجد اكبر (٧٦) ، ولذلك تقرر بالاجماع العودة الى الرب والمثابرة على المهمة التي كانوا قد باسروها حتى يزورهم ضوء النهار وينظر بتأييد الى اعمالهم بعد التماسهم المساعدة من السماء .

وبناء عليه ، أمسك الجميع وهم مجموعون على هدف واحد ، بأسلحتهم ، وأمروا الأبواق أن تعلن الاشارة وهم عائدون الى المهمة قيد الاعداد ، واستدعت دعوة البوق مع صوت المنادي فورا جميع الناس الى المعركة ، وحيث كان الناس متلهفين للانتقام لمظالم اخوانهم القتلى ، فقد اجتمعوا امام المدينة باتقاد غريب وتحذوا العدو للمعركة بنهم ، ولدى معاينة صفوفنا ، بدت وكأنها لم تكابد أية خسارة ، أو كانت قد تلقت تعزيزات جديدة على الأقل ، فاستولى على المسيحيين غضب جنوني لابادة العدو وانقضوا على أفرادهم وهاجموهم بعنف شديد لدرجة أن العدو أصيب

بالدهشة وصعق ازاء الدليل على قوتنا التي لا تقهر ومواظبتنا التي لا تغلب ، وكانت جميع الجهود التي بذلها العدو عقيمة على الرغم من انه بذل جهودا يائسة للثأر بطريقة مماثلة ، لأنه لم يتمكن من الصمود امام صدمة جنودنا ولا ان يتجنب سيوفهم ، لقد نشبت معركة ذلك اليوم بين قوى غير متكافئة على الاطلاق ، غير أن الفرسان والجنود المشاة فازوا بأكاليل غار النصر وانتصروا على العدو في جميع المواقع .

وهكذا وقعت مجزرة كبيرة بين صفوف العدو ، وجرى تعويض الخسارة ، التي كابدها المسيحيون قبل ثلاثة ايام ، بمقادير مضاعفة كثيرا ، فنادرا ما كانت هناك اية أسرة في المدينة لم يصب افرادها بكرب عميق ، وامتلات المدينة بالفوضى ، وبدت المحن التي تمت معاناتها من قبل محنا خفيفة بالمقارنة مع الخطر الحالي ، ولم يكونوا قد أصيبوا بكوارث مماثلة في أي وقت منذ بداية الحصار وحتى ذلك اليوم ، كما لم يكونوا قد تحملوا خسائر مماثلة أبدا ، فقد ابيدت صفوة مملكتهم وقتل حكام المدينة وباتوا في عوز الى الرأي ، وتناقصت شجاعتهم وتلاشى كل الأمل بالمقاومة .

وهكذا تم ارسال عدد من قانتهم الرئيسيين الى الملك بموافقة عامة كسفراء ، وتوجب عليهم ان يطلبوا التوصل الى هدنة مؤقتة من اجل تبادل جثث القتلى وليتمكن الجانبان من الحصول على الفرصة وكل حسب عاقته - لاقامة المراسم النهائية لأعمال دفن موثمة .

وافق المسيحيون على الشروط المعروفة ، وجرى تبادل جثث القتلى ودفنت باحتفالات مهيبه .

٢٩ - استسلام أهالي عسقلان لليأس ، وتقريرهم بالاجماع الاستسلام :

عندما رأى أهالي عسقلان الدليل على المجزرة التي تعرض لها
حشدهم وأدركوا وعرفوا مدى القوة التي أرسلها الرب ضدهم تجدد
حزנם وازداد زعر قلوبهم وتلاشت شجاعتهم بمقدار حجم محنهم .
وعلاوة على ذلك ، ولكي تتوج المحن التي أصيبوا بها ، نزلت بهم
كارثة أخرى في ذلك اليوم ، فقد حدث أن أربعين جندياً من جنودهم
الشجعان كانوا يسحبون عارضة ضخمة إلى موقع كان بحاجة إليها
عندما سقطت صخرة ضخمة كانت مقنوفة من آلة القذف الصربية ،
التي كانت عندنا ، على العارضة وسحقته تماماً مع الجنود الذين
كانوا ينقلونها .

ثم جمع زعماء المدينة الباقون على قيد الحياة الناس مع بعضهم
بعضاً وهم يشعرون بالمرارة في أفئدتهم ويناضلون تحت عبء المحن
الثقيلة ، فاجتمعوا وهم يبكون ويطلقون صيحات العويل ، وكان بين
الحشد نسوة ضمن أطفالهن إلى صدورهن ، ورجال ضعفاء
مسنون كانوا يلفظون أنفاسهم ، ثم تحدث بناء على موافقة الجميع
بعض الرجال الحكماء والأعيان إلى الناس المجتمعين على النحو
التالي : « تعرفون يا أهالي عسقلان ، أنتم الذين تقيمون وراء هذه
الأبواب ، وما من أحد يعرف أفضل منكم ، كيف كنا قد خضنا كفاحاً
خطيراً وصعباً لمدة خمسين عاماً ضد هؤلاء الناس المروعين
والمصرين على هدفهم ، وتعرفون تماماً وبتجربة فعلية كم مرة
أطاحوا بزعمائنا في المعركة ، وكم مرة جدد أبناؤنا الكفاح لرد أذاهم
بعدما أخذوا مواقع آبائهم ، ودفعنا في ذلك دائماً الأمل بالمحافظة
على هذا الموقع الذي ترعرعنا فيه ، وبالدفاع عن زوجاتنا وأبنائنا
وعن الفضيلة الأعظم بكثير ألا وهي الحرية ، لقد استمر هذا الكفاح
لمدة أربع وأربعين سنة ، منذ الوقت الذي باغتنا فيه ذلك الشعب

المزعج جدا بالنسبة لنا ، والذي قدم من أبعد مناطق الغرب واستولى
بقبضة قوية ويعنف على المنطقة بأسرها شرعا من طرسوس في
كليكية وحتى مصر ، وبقيت هذه المدينة وحدها وبسبب الجهود
الشجاعة التي بذلها أجدادنا سليمة في وسط أعداء أقوياء كهؤلاء
حتى اليوم الحالي ، إلا أنه يمكن اعتبار المخاطر التي كابدها حتى
الوقت الحالي مخاطر صغيرة أو لا شيء عند مقارنتها مع المخاطر
التي تهددنا الآن ، وجميعنا عاقدين العزم على المقاومة حتى الآن ،
إلا أن الجيش قد هلك ونفدت المؤن وعبء المشقات الثقيل لا يحتمل ،
كما أن حشود العدو القوي مستعدة دائما ومواظبة للغاية ، وقد
أضعفت غاراتهم المستمرة قوتنا العقلية والجسدية على حد سواء ،
وحرمتنا من القوة لمواصلة النضال .

« وبناء عليه يبدو من الوازم لزعماء عسقلان ، أن توافقوا أنتم
أيضا ، في أن نحاول تخليص أنفسنا من معاناتنا الحالية في هذا
الوقت ، ولنرسل مبعوثين باسم جميع الناس إلى ذلك الملك القوي
الذي يحاصرنا ، ولنبدل الجهود في أسبيل الحصول على شروط
محددة بالآن لنا بالرحيل بحرية مع زوجاتنا وأبنائنا وعبيدنا
وامائنا وجميع ما نمتلك ، وسنوافق من جانبنا بالمقابل على تسليم
المدينة له - إننا نقول هذه الكلمات بحزن - لننهي هذه الحزن
الرهيبية » (٧٧) .

٣٠ - إرسال مندوبين مختارين من الرجال
القياديين إلى الملك . حصولهم منه على إذن بالرحيل
بحرية مع زوجاتهم وأبنائهم وجميع ممتلكاتهم .
تسليم المدينة .

بدا هذا الخطاب جيدا في نظر الجميع ، وتمت الموافقة عليه
بصيحات الموافقة العالية كما هو مألوف في ظروف كهذه ، واختير

رجال حكماء وعقلاء ونور مظهر موقر ومبجل من الشعب لينقلوا إلى الملك ونبلائه الاقتراح الذي كانوا قد توصلوا إليه ، وانطلق هؤلاء المندوبون من الباب عندما استلموا الاذن بالتقدم واقتربوا من حضرة الملك .

عندما اجتمع الأمراء جميعا استجابة لطلب المبعوثين ، وضع الاقتراح أمامهم وشرحت الشروط التي وضعت بالتفصيل ، ثم طلب من المندوبين الانسحاب لفترة من الزمن بينما يتشاور الملك مع مستشاريه القيايين ، ويستمع إلى آرائهم حول عرضهم ، وقد انفجروا بدموع الفرح وردوا بعيون وأيدي مرفوعة عاليا إلى السماء بالشكر العميق لخالقهم الذي تفضل بمنحهم معروفا وافرا كهذا ، مع أنهم كانوا لا يستحقون ذلك .

ثم جرى استدعاء الرسل ، وقدمت لهم اجابة جماعية ، في أنه ستقبل الشروط التي عرضت إذا ما قاموا بإخلاء المدينة بأسرها في غضون الأيام الثلاثة القادمة ، ووافق المبعوثون على هذه الشروط ، وطلبوا تأكديها بأداء يمين لاعطاء القوة الكافية للاتفاقية ، وهكذا أدي قسم بإجلال لائق ، ووعد الملك وبعض خيرة نبلائه بأنهم سينفذون جميع شروط الاتفاق المذكور من قبل بإخلاص ودون نوايا شريرة ، ثم سلموا الرهائن التي كان الملك قد طالب بها بالذات ، وعادوا إلى ديارهم بابتهاج ، ورافقهم عدد من الفرسان المسيحيين ليضعوا راية الملك فوق البرج العلوي في المدينة كعلامة على النصر .

عندما رأى جيشنا - الذي كان ينتظر بتوقع وتلهف - الرايات الملكية ترفرف من الأبراج العلوية انفجروا بصراخ صدر عن الجماعة المسرورة ، وارتفعت صيحات الشكر إلى السماء ترافقها الدموع وكأنها صادرة عن صوت واحد يقول : « تبارك الرب الذي لم يتخل عن الذين وثقوا به ، وتبارك اسم جلالته المقدسة لأننا شاهدنا أشياء رائعة اليوم » .

وعلى الرغم من أن أهالي عسقلان حصلوا ، حسب الاتفاقية ، على هدنة لمدة ثلاثة أيام متتالية ، إلا أنهم خافوا كثيرا من وجود المسيحيين ، لذلك أتموا جميع استعداداتهم في غضون يومين ، ثم استعدوا للرحلة وانطلقوا مع زوجاتهم وابنائهم وعبيدهم وجواريهم وكافة أنواع ممتلكاتهم ، وزودهم الملك ، حسب الاتفاق ، بالمرشدين حتى مدينة العريش القديمة الواقعة في الصحراء وأرسلهم بأمان .

ثم إن الملك والبطريرك بمرافقة أمراء المملكة الآخرين ومطارنة الكنيسة مع جميع الكهنة وسائر الناس دخلوا المدينة بالتراتيل والأناشيد الروحية وبقيادة صليب الصليبوت ، ونقل الصليب إلى المسجد الرئيسي للمسلمين وكان مبنى فائق الجمال تم تكريسه فيما بعد على اسم الرسول بولص تشريفا لذكراه ، وانسحب الجميع إلى الأحياء المخصصة لهم بعدما احتفلوا بالطقوس السماوية وقدموا صلوات الشكر هناك ، وأمضوا يوما بهيجا وجديرا بأن يذكر إلى الأبد (٧٨) .

ونظم البطريرك في غضون أيام قليلة بعد ذلك الكنيسة في عسقلان ، وعين هناك عددا محددًا من الكهنة وخصهم بدخل ثابت حمل اسم أوقاف كنسية ، كما عين أسقفًا لمدينة عسقلان شخصا يدعى أبسالوم وكان كاهنا نظاميا في كنيسة قبر المسيح على الرغم من أن جيرالد أسقف بيت لحم احتج بقوة ضد هذا التعيين وحرّم تنفيذه ، ثم أحييت القضية بدعوى استئناف إلى البابا في روما ، فعزل البابا الأسقف الذي عينه البطريرك ومنح لاسقف بيت لحم الكنيسة الموجودة في عسقلان مع سائر ممتلكاتها ليحتفظ بها وبالكنيسة في بيت لحم بحق دائم (٧٩)

وتلبية لنصيحة والدته ، وزع الملك الممتلكات الواقعة داخل المدينة وخارجها مع المناطق التابعة لها مباشرة على أولئك الذين كانوا يستحقونها عن جدارة ، وباع قسما منها الى بعضهم (٨٠) ووهب

- ٣١٤٢ -

بسقاء مدينة عسقلان الى أخيه عموري كونت يافا. لقد تم الاستيلاء على عسقلان في الثاني عشر من شهر آب في العام ١١٥٤ لتجسيد الرب وفي العام العاشر لحكم الملك بلدوين الثالث (٨١).

حلت كارثة محزنة بسكان مدينة عسقلان التعسة أثناء رحلتهم الى مصر ، فعندما رحل الجنود الذين كان الملك قد عينهم ليرشدوهم في طريقهم وليمنعوا من التحرش بهم من أي كان ، فقد هاجم النازحين شخص يدعى «نوقونيوس» وهو تركي الأصل ، وكان قويا باستخدام السلاح إلا أنه كان صاحب حياة شريرة وغير مخلص على الاطلاق ، وكان هذا الرجل قد شاركهم مشقاتهم ، وكان قد حارب معهم لفترة طويلة من الزمن بشكل مأجور ، وتظاهر بأنه رغب بمرافقتهم في الرحلة الى مصر ، الا أنه عندما رأى أن المرشدين قد تركوهم ، رمى بازدياء جانبا جميع النوايا الطيبة والصفات الانسانية وهجم عليهم ، ثم رحل بعد أن سلبهم جميع ممتلكاتهم وتركهم يجوبون في الصحراء (٨٢) .

انتهى الكتاب السابع عشر

الكتاب الثامن عشر

القدس اللاتينية في اوجها في ظل بلدوين الثالث:
الانجذاب نحو مصر.

١ - ارناط يسيء معاملة بطيريك انطاكية بشكل
معيب ، التجاء البطيريك الى المملكة. انتشار مجاعة
خطيرة في المنطقة.

كان ارناط قد تزوج من ارملة ريموند أمير انطاكية ، كما نكرت
ذلك من قبل ، وكان قد أدرك منذ البداية أن هذا الزواج لم يكن
مرضيا للبطيريك ، وبالنظر لاستمرار البطيريك بالاصرار على
الموقف ذاته ، فقد نظر ارناط بارتياح الى كل ما يفعله (٨٣) كما ان
البطيريك ، الذي كان قويا وثريا جدا والذي كان يتمتع بسلطة
متفوقة عبر بحرية مرارا عن آرائه علنا ، وخاصة حول ارناط
واقباله ، وكما هو الحال كالمعتاد فقد قام أشخاص - سعوا لزيادة
الكراهية بين الأمير والبطيريك - بنقل هذ التعليقات الى
الأمير ، وهكذا استشاط ارناط غيظا وغضب غضبا شديدا ، وأمر
باعتقال البطيريك ، ونقله بشكل مهين الى القلعة التي تطل على
انطاكية ، ثم ارتكب عملا بغيضا للغاية بأن أجبر البطيريك ،
المسن ، خليفة بطرس رئيس الرسل ، وعلى الرغم من أنه كان
مريضا لدرجة أن الأمل في شفائه يكاد أن يكون معدوما ، أمره أن
يجلس تحت الشمس الملتهبة طوال يوم من أيام الصيف ورأسه
المكشوف مغطى بالعسل ، ولم يقدم له أحد ، من أجل التقوى ، أية
نجدة من اشعة الشمس القاسية أو حاول أن يبعد الذباب عنه.

عندما وصل نبأ هذه الاهانة الى ملك القدس ، تملكه الرعب

والغضب إزاء التصرف الجنوني للأمير الأحمق ، وبما أنه لم يتمالك نفسه من الغضب ، فقد أرسل الى أرناط اثنين من المبعوثين المبجلين هما: فريديريك أسقف عكا والمستشار رالف ، حملا له رسالة أنب فيها الملك - استنادا لسلطته الملكية - الأمير لعمله الشائن وحذره وطالبه بالعدول عن أساليبه الشريرة ، وأطلق الأمير ، بعد استماعه للرسولين وقراءة رسالة الملك ، سراح البطريرك بعدما أمطره بوابل من الشتائم ، وأعيدت أيضا الممتلكات التي كانت قد أخذت من البطريرك وشعبه ، هذا وغادر في نهاية الأمر البطريرك منطقة انطاكية ، وذهب الى مملكة القدس فاستقبله الملك وزوجته ووالدته بصدور رحب ، واستقبله أيضا البطريرك وجميع أساقفة المملكة وبقي هنالك لعدة سنوات .

انتشرت في العام اللاحق مجاعة خطيرة في سائر المنطقة (٨٤) ، فقد أزال الرب المتلىء بالحقد نحن - ونا دعامتنا الأساسية ، أي الخبز ، الى درجة بيع مكيال القمح بأربع قطع ذهبية ، وفي الواقع ، لو لم يكن قد تم العثور على كميات كبيرة من الحبوب في عسقلان عندما تم الاستيلاء عليها ، لاجتاحت المجاعة المنطقة ولهلك جميع الناس تقريبا ، لقد بقيت الحقول الواقعة حول عسقلان بدون زراعة لمدة خمسين عاما بسبب الخوف من الحروب ، إلا أن المنطقة أصبحت تحت رعاية المزارعين خلال الأعوام اللاحقة للاستيلاء عليها ، وتمكن أهالي تلك المنطقة من زراعة الأرض بحرية بعدما تخلصوا من الخوف من العدو ، وهكذا نعمت المملكة بأسرها بوفرة كبيرة الى حد يمكن فيه تسمية جميع الأعوام السابقة مجدية وعقيمة بالمقارنة مع الحاضر ، ولقد احتفظت التربة بداخلها بكل طاقتها لأنها لم تزرع لفترة طويلة من الزمن وكانت محرومة من عناية الحراثة ، واستجابت بالنتيجة لعناية المزارعين بفائدة مضاعفة وأنتجت محاصيل تضاعفت ستين مرة .

٢ - اختيار هادريان بابا إثر وفاة أناستاسيوس .
تتويج الامبراطور فريديريك في روما. نشوب عداوة
خطيرة بين البابا ووليم ملك صقلية.

في الوقت الذي كانت هذه الحوادث تأخذ مجراها في الشرق توفي البابا أناستاسيوس الرابع في روما ، وعين بدلا عنه هادريان الثالث (هادريان الرابع) (٨٥) وكان هذا البابا انكليزي المولد من قلعة القديس البانز ، وكان راعيا للكهنة النظامين في كنيسة القديس روفوس الواقعة بالقرب من مدينة أفينغنون في بروفانس في أبرشية الألز ، وقد استدعى من هنالك الى كنيسة روما من قبل البابا يوجينيوس صاحب الذكرى الورعة ، ورسم أسقفا للبانز باسم نيقولاس ، ثم أرسل أناستاسيوس خليفة البابا يوجينيوس كممثل باباوي الى النروج التي تعتبر من أبعد أقاليم الغرب ، وكان لدى عودته بعد وفاة هذا البابا ، موجودا في الانتخاب وقد اختير بالاجماع من قبل رجال الدين والناس كبابا ومنح اسم هادريان.

وحدث في هذا العام نفسه أن نزل فريديريك ملك التيوتون الى ايطاليا بقوات ضخمة ، على الرغم من أنه لم يكن قد أصبح امبراطورا بعد ، وحاصر تورطونا وهي إحدى مدن لومبارديا ، واستمر الحصار لفترة طويلة من الزمن ، الا أنه قرر الذهاب الى روما وأن يتوج امبراطورا هناك بعدما تم الاستيلاء على المدينة في آخر الأمر. (٨٦)

ونشب خلال الوقت نفسه عداة خطيرة أيضا بين البابا هادريان ، الذي نحن بصددده الآن ، وبين وليم ملك صقلية ، ابن روجرذي الذكرى الطيبة ، وقد صدر هذا العداة عن أسباب مختلفة ، وقد وصل الخلاف بين الرجلين الى درجة العداة العلني الى حد أن البابا أصدر عقوبة الحرمان الكنسي ضد الملك وشن حربا ضروسا ضده (٨٧) .

ومهما يكن من أمر فإن فريديريك المصمم على بلوغ هدفه حث الخطى على طريقه وزحف في غضون أيام قليلة من لومبارديا الى روما حيث أثار وصوله المفاجيء بعض الريبة في ذهن البابا والكنيسة الرومانية بأسرها ، إلا أنه تم في آخر الأمر ، وعن طريق بعض الوسطاء ترتيب الشروط المعتادة ، وتوج فريديريك في السادس والعشرين من شهر حزيران وباحتفال مهيب في كنيسة بطرس وأعلن امبراطورا (٨٨) .

وبعد مضي ثلاثة أيام على يوم عيد الرسولين بطرس وبولص ، المتزين بالشارة الامبراطورية والبابا المرتدي للطرز المميزة للمنصب البابوي الأسمى حشدا قواتها في موقع يسمى « جسر لوكان » بالقرب من مدينة تيفولي ، وتقدما في طريقهما مع بعضهما من هناك وسط الكهنة وعامة الناس المبتهجين والغار يتوجهما ، وانفصلا عند انتهاء العيد الديني وهما على وفاق طيب ، وأسرع الامبراطور الى أنكونا حيث تطلبت حضوره شؤون الامبراطورية ، وتقدم البابا الى المنطقة المجاورة لروما حيث أقام لبرهة من الزمن في مدن الهضبة.

كان ملك صقلية قد أمر نبلاءه في هذه الأثناء بحصار مدينة بينيفنتو التي كانت الملكية الخاصة للكنيسة الرومانية ، وأن يطوقوا المدينة باحكام بالقدر الممكن ، فغضب البابا بشكل يفوق الحدود إزاء هذا العمل ، وحاول تحريض نبلاء الملك ضده لأنه كان راغبا برد المعاملة السيئة باجراء مماثل ، ولم تخفق أمانيه في تلك الناحية فقد لاقت جهوده النجاح لأنه أقنع روبرت صاحب باسافيليا الذي كان الكونت الأقوى في صقلية ابن خالة الملك ونبلاء آخرين أيضا ليثوروا ضد سيدهم بتعهده أنهم لن يفتقروا أبدا الى مساعدة الكنيسة الرومانية ومشورتها (٨٩) . وعلاوة على ذلك أقنعت نصائح البابا الكثير من النبلاء البارزين والمشهورين ، الذين كان وليم ووالده قد حرموهم من ميراثهم وطردوهم ونفوهم من الملكة ، بالعودة الى

المملكة واستئناف حيازة الممتلكات التي كانت تنتمي اليهم بحق وراثي ، وكان بينهم روبرت أوف سورنتو وأمير كابوا ، والكونت أندرياس أوف راباكانديا وآخرون كثير ، وقدم البابا تأكيده المهيب الى جميع هؤلاء بأن كنيسة روما لن تخذلهم أبدا ، ولم يكتف بهذه الوعود ، بل زاد فحث كلا من امبراطور الرومان الذي كان ما يزال في ايطاليا علانية وبكلمات شفوية ، وامبراطور القسطنطينية برسائل سرية أرسلها اليه للاستيلاء على مملكة صقلية(٩٠) .

٣ - نشوب خلاف بين البطريرك واخوانية الاسبتارية حول مسألة العشور. وحول بعض الأضرار التي الحقها ذلك التنظيم بالكناؤس.

بينما كانت الكناؤس في ايطاليا في هذه الحالة غير المستقرة وكذلك الأحوال في صقلية كانت مضطربة لم تكن منطقتنا في الشرق خالية بدورها من الاضطراب ففي الوقت الذي تم فيه بتأييد السماء استرجاع مدينة عسقلان الى المسيحيين ، عندما كانت أمور المملكة تتقدم بشكل سار أيضا حيث توفرت المحاصيل بدأ عدو الانسان الحاسد للهدوء المكلف من الرب باثارة الضغائن ، فقد شرع ريموند مقدم بيت الاسبتارية ، الذي كان ممثلاً مع اخوانه بالحيوية نفسها أيضا (على الرغم من أنه بدأ في جوانب أخرى أنه كان رجلاً متدينا ويخاف الرب) ، بدأ يسبب متاعب جملة للبطريرك ومطارنة الكنيسة الآخرين حول قضايا ذات طبيعة ادارية كنسوية ، ومسائل تتعلق بالعشور ، وكان الاسبتارية معتادين على أن يستقبلوا في الاحتفال بالقربان المقدس الناس بدون تمييز أو مناقشة واستقبلوا حتى الذين كان أساقفتهم قد فرضوا بحقهم عقوبة الحرمان الكنيسي ، أو حرموا بالاسم ، والذين فصلوا عن الكنيسة عقاباً لأثامهم ، ولم يرفضوا تقديم قربان الموت والمسح المتطرف بالزيت لهؤلاء الاشخاص أنفسهم عند مرضهم ، ولم يحرموهم من الدفن ، وعندما

كان يفرض الصمت على جميع الكنائس أو على كنائس مدينة أو على قلعة ما بسبب جرائم ارتكبت ، فقد كان الاستبائية معتادين على قرع نواقيسهم والمناداة بشكل أعلى من المعتاد لاستدعاء المفروضة بحقهم الحرمان الكنسي لحضور الطقس الديني ، وكانوا يفعلون هذا حتى يتمكنوا هم أنفسهم من الاستمتاع بالقرايين وعائدات أخرى كانت تخص الكنائس الأم بعدل بحيث يتمكنون من السرور وحدهم عندما يكون الآخرون يتألمون(٩١) ونسوا أقوال الواعظ الشهير الذي قال : « فرحا مع الفرحين وبكاء مع الباكين »(٩٢)

وعلاوة على ذلك ، فلم يقدموا كهنتهم الى أسقف الموقع حسب الحكم القديم للقوانين الكنسية المقدسة ليتمكنوا من الحصول على موافقة أسيادهم لاقامة الطقوس المقدسة في أبرشياتهم ، كما لم يخبروا أساقفتهم عندما لزم عزل أحد الكهنة من أبرشية ما سواء اكان ذلك بعدل أو بظلم ، ورفضوا بشكل قاطع تقديم العشور من اقطاعاتهم الخاصة ومن جميع العائدات المنقولة اليهم بأي حق كان ، وكان لدى جميع الاساقفة هذه الشكوى ضدهم. كما كابدت جميع الكنائس الكاتدرائية الموجودة في كل مكان من هذه الخسارة نفسها ، هذا وقد نفذوا الخطأ الأكثر إفراطا من جميع الأخطاء ضد البطريرك والكنيسة المقدسة في القدس ، وكان عملا بغيضا بالنسبة لجميع المسيحيين ، فقد بدأوا يشيرون أمام الأبواب نفسها لكنيسة القيامة المقدسة صرحا أعلى بكثير وأكثر كلفة من تلك الكنيسة التي كان الدم النفيس لمنقذنا المعلق على الصليب قد كرسها - وذلك ليظهروا احتقارهم الوقح للكنيسة التي قدمت للمنقذ قبرا مرضيا ضمن جدرانها بعدما كابد من ألم الصليب(٩٣) .

وعلاوة على ذلك ، فقد حاولوا اعاقا القداس المناط بالبطريرك كلما خرج للتحدث الى الناس وحسب العادة ، ومن الموقع الذي علق فيه منقذ الجنس البشري من أجل خلاصنا ، وجلب بذلك فداء تاما للعالم بأسره ، حيث كانوا يقرعون نواقيسهم الضخمة بمكر مقصود

وبشكل عال جدا مستمر بحيث تعذر على صوت البطريك أن يرتفع على الضجة ، كما لم يتمكن الناس من سماعه على الرغم من الجهود التي كان يبذلها البطريك لاسماعهم ، واشتكى البطريك للسكان مرارا ضد السلوك المهين للاسبتارية الذي كان واضحا تماما ، ومع ذلك ، فقد ظلوا متشبهين بموقفهم على الرغم من أن الكثيرين رجوهم بالتوقف ، وهددوا أيضا بأنهم سيستخدمون في نهاية الأمر اجراءات أقوى أيضا ، ونفذوا هذا التهديد لأنهم واصلوا وقاحتهم الى حدود كبيرة ، الى درجة أنهم تسلحوا بروح العنف الوقح واقتحموا الكنيسة حبيبة الله كما يقتحمون منزل شخص عادي ، وأطلقوا وابلا من السهام وكأنهم يطلقونه على وكر اللصوص ، فجمعت هذه السهام فيما بعد بحزمة ، ورأيناها بأنفسنا مع آخرين كثيرين وهي متدللية من حبل أمام موقع الجلجلة ، وهو الموضع الذي صلب فيه المسيح (٩٤) .

ويعتقد الذين أجروا دراسة دقيقة لهذا الموضوع أن الكنيسة الرومانية كانت مسؤولة بشكل رئيسي عن هذا الاثم الكبير ، مع أن ذلك كان كما هو محتمل دون تعمد ودون اعطاء أي اهتمام الى الامتياز الذي طولب به ، لأن الكنيسة هي التي نقلت بجور بيت الاسبتارية من سلطة بطريك القدس الذي كان خاضعا له بعدل (٩٥) ، ولهذا السبب ، ليس لدى الاسبتارية توقيير للرب أو تقدير لأي انسان باستثناء الذين يخافونهم ، ومع ذلك ، فإننا نتهمهم بأجمعهم – ودون تمييز – بالعجرفة ، وهو اثم بغيض جدا بالنسبة للرب وأصل لجميع الرذائل ، وبالفعل ، إننا نعتقد أنه سيكون من المستحيل تقريبا في جماعة كبيرة كهذه أن يتمكن الجميع من سلوك السبيل ذاته دون انحراف في المسلك.

ولكي نشرح في هذا الكتاب كيف تطور هذا المقر من بداية بسيطة وأصبح قويا جدا ، وكيف تصرف بجور ولا يزال مستمرا بالعمل ضد كنائس الرب ، من الضروري أن نبدأ القصة من وقت

سابق الى حد ما ، لاننا سنحاول بعون الرب أن ننفذ هذا دون انحراف عن الحقيقة بتاتا.

٤ - أصل بيت الاسبتارية وتطوره.

تبعاً لروايات المؤرخين القدامى أصبحت قوة أهالي الجزيرة العربية أيام هرقل امبراطور الروم كبيرة جداً ضده وبالمحصلة سقطت مملكة القدس مع سائر سورية ومصر والأقاليم المتاخمة في أيدي أعداء العقيدة والاسم المسيحي بسبب أثماننا ، ومع ذلك وعلى الرغم من أن الأماكن المقدسة أصبحت بالتالي تحت سلطة العدو من وقت لآخر ، فقد قام اناس كثيرون بزيارتها من الغرب من أجل العبادة أو العمل ، وربما من أجل الاثنيين ، وكان بين الذين غامروا من الغرب في ذلك الوقت في الذهاب الى الأماكن المقدسة من أجل التجارة بعض الرجال الايطاليين والذين كانوا يعرفون باسم الأمالفيين وهو اسم مستمد من اسم مدينتهم (٩٦) .

تقع مدينة أمالفي بين جبال شامخة وبين البحر ، وتقع مدينة سالرنو النبيلة الى الشرق وعلى بعد نحو سبعة أميال من البحر ، وتقع الى الشرق كل من سورنتو ونابولي مدينة فرجيل ، وإلى الجنوب وعلى بعد نحو مائتي ميل عبر بحر تيراهينيان تقع صقلية (٩٧) ، وكما ذكرت من قبل ، كان أهالي مدينة أمالفي أول من حاول نقل السلع الأجنبية الى الشرق ، التي لم تكن معروفة بالنسبة له حتى الآن وذلك ليكسبوا المال ، وحصلوا بسبب المواد الضرورية التي جلبوها الى هنالك على شروط مواتية جداً من الرجال الرئيسييين في تلك المناطق ، وسمح لهم بالقدوم الى هناك بحرية ، وكان الناس ميالين اليهم بشكل ايجابي (٩٨) .

كان حاكم مصر يحتفظ في تلك الحقبة بسائر المنطقة الساحلية الممتدة من مدينة جبلة الواقعة على الشاطئ بالقرب من اللاذقية في

سورية ، وحتى مدينة الاسكندرية آخر المدن في مصر ، وكان يترأس كل مدينة حاكم جعل قوة الأمير يحسب لها الحسبان في كل مكان ، هذا وحظي الأمالفيون بالتأييد الكامل من الملك ونبلائه أيضا ، وتمكنوا من السفر بسلامة تامة في سائر أنحاء البلاد بمثابة تجار وباعة للمواد المفيدة التي كانوا ينقلونها ، وحيث كان هؤلاء التجار أوفياء لتقاليد آبائهم وللعقيدة المسيحية ، فقد اعتادوا على زيارة الأماكن المقدسة كلما سمحت لهم الفرصة بذلك ، إلا أنهم لم يكونوا يملكون أي منزل في القدس حتى يتمكنوا من البقاء فيها لفترة من الزمن كما كان لهم في المدن الساحلية ، وهكذا جمعوا حتى ينفذوا خطة مذشودة منذ زمن طويل ، عددا كبيرا من سكان مدينتهم بالقدر الممكن وقاموا بزيارة الخليفة المصري وكسبوا ود أفراد عائلته ، وقدموا مطالبا مكتوبا وتلقوا اجابة سارة تتوافق مع رغباتهم .

٥ - كيف امر الخليفة المصري تلبية لمطلب الأمالفيين بتخصيص موقع لهم حتى يتمكنوا من بناء كنيسة فيه .

وبناء عليه جرى إرسال أمر مكتوب إلى حاكم القدس يقضي بتخصيص منطقة واسعة جدا في القدس في جزء المدينة الذي يشغله المسيحيون ، لأهالي أمالفي والأصدقاء وحملة المواد المفيدة وذلك بناء على مطلبهم ، وتوجب عليهم أن يشيدوا بناء كبيرا هناك حسبما كانوا يرغبون ، وكانت المدينة مقسمة في ذلك الوقت ، كما هي مقسمة اليوم ، إلى أربعة أقسام متساوية تقريبا ، ومنح المؤمنون قسما واحدا من هذه الأقسام وهو الحي الذي يحوي قبر الرب ليكون مقرا لاقامتهم ، وشغل الكفرة باقي المدينة مع هيكل الرب .

وتلبية لأمر الخليفة المصري جرى تخصيص مكان كبير يكفي لإشادة الأبنية اللازمة لأهالي مدينة أمالفي وجمعت الاعانات المالية من التجار وشيدوا ديرا على اسم أم الرب المجيدة والمقدسة مريم

العذراء (٩٩) ، وذلك أمام باب كنيسة قيامة الرب وعلى بعد مرمى حجر تقريبا ، وإضافة لهذا كانت هناك مرافق مناسبة لاستخدام الرهبان ولإستضافة الضيوف القادمين من مدينتهم .

وبعد إنجاز البناء جلبوا راعيا ورهبانا من مدينة أمالفي وأقاموا الدير تحت حكم نظامي كمركز للحياة المقدسة المقبولة للرب ، وبما أن الذين كانوا قد أسسوا الموقع وحافظوا عليه دينيا كانوا رجالا من العرق اللاتيني ، فقد عرف باسم دير اللاتين منذ تلك الآونة وحتى الوقت الحالي .

وحدث مرارا أن قدم حتى في تلك الأيام الأرامل التقيات والمحتمشات إلى القدس ليقبلن الأماكن المقدسة ، وكن قد واجهن - دون اعتبار للخوف الطبيعي ، ودون خشية - مخاطر الطريق التي لا تحصى ، وحيث لم يكن هناك أي مكان في مداخل الدير يمكن فيه استقبال حاجات كهؤلاء بطريقة مشرفة ، فقد شيد الرجال الأتقياء أنفسهم ، الذين كانوا قد بنوا الدير ، مبنى احتياطيا موائما لهؤلاء الناس أيضا ، بحيث عندما تأتي نسوة ورعاع يجدن كنيسة صغيرة ونزلا ومحال منفصلة لهن ، وشيد في آخر الأمر ، وبفضل الرحمة السماوية ، دير صغير هناك تشريفا لتلك المدينة الورعة مريم المجدلية وجرى وضع عدة راهبات هناك لخدمن النسوة الحاجات .

واندفعت خلال هذه الأزمان الخطيرة نفسها أفواج من الناس من بلاد أخرى إلى هناك من النبلاء والطبقة الوسطى على حد سواء (١٠٠) . وبما أنه لم يكن هناك أي طريق إلى المدينة المقدسة إلا عن طريق المناطق المعادية ، فقد كان الحجاج ينفقون بالعادة نقود سفرهم مع وقت وصولهم إلى القدس ، وكان هؤلاء الحجاج يضطرون للانتظار أمام ابواب المدينة وهم بائسون وعاجزون ، وفريسة لجميع مشقات الجوع والعطش والعري ، ولم يكن يسمح لهم بدخول المدينة حتى يكونوا قد دفعوا قطعة ذهبية ، وحتى بعد حصولهم في آخر الأمر على حق الدخول وزيارة الأماكن المقدسة واحدا تلو الآخر ، لم يكن لديهم

اية وسيلة للراحة وحتى ولو ليوم واحد باستثناء ما كان يقدم إليهم وبروح أخوية من قبل رهبان هذا الدير ، وكان جميع القاطنين في القدس هم من المسلمين والكفرة باستثناء البطريرك ورجال الدين والسريان التعساء ، وكانت أعمال الابتزاز اليومية والسخرة المتعددة الأشكال والخدمات الاضافية وتنفيذ الأشياء ذات الطبيعة الحقيرة للغاية تثقل كاهل السريان إلى درجة أنهم لم يستطيعوا أن يتنفسوا إلا بشق النفس ، وعاشوا في فقر مدقع للغاية وفي خوف مستمر من الموت .

وبما أنه لم يكن هنالك أحد ليقدم المأوى إلى الحجاج البائسين الذين ينتمون إلى عقيدتنا ، والذين كانوا مبتلين بهذا الشكل ، ومعوزين الى الحد الأقصى ، فإن الرجال الاتقياء الذين كانوا يقيمون في دير اللاتين اخذوا بشفقة شيئا من وسادتهم الخاصة وشيدوا ضمن المجال المخصص لهم رباطا لاعانة حجاج كهؤلاء ، استقبلوا فيه هؤلاء الناس سواء أكانوا مرضى أو معاقين وذلك خشية من أن يتم العثور عليهم بعدما يكونوا قد خنقوا على الطرقات ليلا ، وإضافة لتقديم المأوى في الرباط ، فقد رتبوا وجوب توفير الأقسام الباقية من مؤن الطعام في الديرين ، أي من دير الرهبان والراهبات ، للاعالة اليومية لأناس كهؤلاء .

وشيدوا بالاضافة إلى ذلك مذبحا في ذلك الموقع تشريفا للقديس يوحنا المعطاء ، وكان يوحنا هذا من أهالي قبرص ، وكان رجلا تقيا وجديرا بالثناء من جميع الجوانب ، وأصبح فيما بعد بطريركا للاسكندرية بسبب مؤهلاته ، واشتهر بأعماله الورعة بشكل خاص ، كما أن جميع كنائس القديسين ستمجد حماسة هذا المخلص ، وتقديمه السخي للصدقات ، ولهذا السبب فقد سماه الآباء الاتقياء باسم المعطاء ويمكن ترجمته بالرحيم (١٠١)

لم يكن لهذه المؤسسة المبجلة ، التي مدت يد الاحسان بهذا الشكل

لأعضائها الرجال ، عائدات أو ممتلكات غير أن أبناء أمالفي الموجودين في بلدهم والذين اتخذوا عمل التجارة في الخارج ، جمعوا المال من جماعتهم الخاصة كإعانة طوعية ، وأرسلوا هذا المال إلى راعي الرباط ، أيا كان في وقته ، مع المتوجهين إلى القدس ، وتم من هذا المال تأمين الطعام والمأوى للرهبان والراهبات واستخدم الباقي منه لتقديم بعض المساعدة للحجاج المسيحيين الذين قدموا إلى الرباط (١٠٢) .

بقي هذا الموقع يعييش في ظل هذه الشروط لعدة سنوات حتى شاء الخالق العظيم للكون أن يطهر تلك المدينة من دنس الوثنيين ، المدينة التي كان قد طهرها بدمه ، وأتى في آخر الأمر شعب مسيحي بقيادة زعماء تحميمهم العناية الربانية ، أمر المنقذ بتسليم المدينة إليهم ، وعثر في ذلك الحين على امرأة ورعة ومخلصة للرب تدعى أغنيس في دير النسوة تعمل كراعية له ، واستمرت هذه المرأة النبيلة والرومانية المولد وذات النسب السامي بالعيش لبضع سنوات في القدس بعد إعادة المدينة إلى العقيدة المسيحية (١٠٣) ..

وعثر في الرباط أيضا على شخص يدعى جيرالد ، وكان رجلا صاحب سيرة مستقيمة ، قد قدم تنفيذا لأوامر راعي الدير والرهبان ، خدمة مخلصة إلى الفقراء لفترة طويلة من الزمن ، في ذلك الموقع خلال سيادة العدو ، وخلف ريب سوند ، الذي نحن الآن بصدد الحديث عنه جيرالد فيما بعد (١٠٤) .

٦ - البطريرك يذهب مع معظم الأساقفة إلى روما لزيارة البابا هادريان

ازدادت أهمية هذا البيت ازبيادا كبيرا من هذه البداية المتواضعة إلى درجة أنهم تملصوا أولا من سلطة رئيس الدير (١٠٥) ثم قامت الكنيسة الرومانية بتخليصهم من سلطة البطريرك

وسيطرته وذلك عندما تضاعفت ثروتهم كثيرا ، ولم يظهروا بعد أن حققوا هذه الحرية الخطيرة أي توقيير لرجال الكنيسة ورفضوا رفضا باتا تقديم العشور عن أي من ممتلكاتهم بصرف النظر عن الظروف التي انتقلت فيها إلى ملكيتهم ، وتأثرت بهذه الأمثلة السابقة المواقع التي تسمى مواقع مبجلة سواء أكانت أديرة أو أربطة وتخلص أربابها أخيرا من ولائهم بسبب ثروتهم (١٠٦) ، وكانت الكنيسة قد شيبت أصلا الكثير من هذه الأديرة بدافع السخاء الخالص وبروحها الورعة المألوفة ، وأوصلتها إلى حالة ازدهار تحسد عليها ، إلا أن أربابها تخلوا عن أهم الورعة التي كانت قد ربتهم على لبنها في البداية كالاطفال ، والتي زوبتهم فيما بعد وبمرور الزمن بطعام أكثر صلابة بحيث يمكن للكنيسة أن تشتكي منهم بعدل وتقول : « ربيت بنين ونشأتهم . أما هم فعصوا علي (١٠٧) . فليعف الله عن أشخاص كهؤلاء ، وليسمح لهم بالعودة إلى رشدهم بحيث يمكن أن يتعلموا وأن يخدموا بإجلال الأم التي هجروها ، وقد يكون الأمر أكثر تسامحا مما كان لذلك الشخص الذي طلب الحمل الوحيد للرجل الفقير على الرغم من أنه كان يمتلك مائة شاة ، حيث قال الرب لذلك الرجل : « هل قتلت وورثت أيضا ؟ » (١٠٨) فالويل لذلك الرجل أيا كان ! لأنه « رجل سفاح » حسب قول الرسول .

طالب البطريرك وبقية رجال الكنيسة بحقوقهم مرارا وتكرارا من هؤلاء الرهبان أنفسهم لكن دون جدوى حتى التجأ الطرفان إلى محكمة البابا في روما كما ذكرت ذلك من قبل ، وانطلق البطريرك إلى هناك على الرغم من أنه كان رجلا مسنا للغاية حيث كان قد بلغ بالفعل المائة من عمره تقريبا ، وأخذ معه بعض رجال الكنيسة مثل : بطرس رئيس أساقفة صور مع الأساقفة المساعدين وهم فريديريك أسقف عكا وأمالرك أسقف صيدا ، وبلدوين رئيس أساقفة قيسارية وقسطنطين أسقف اللد ورينير أسقف سبسطية وهيربرت أسقف طبرية ، وبدأوا رحلتهم حالما عاد فصل الربيع المبهج وبعد أن بدأت تخمد الأمواج الشتوية المضطربة بتأثير الريح الغربية ،

ووصلوا بعد رحلة ميمونة وبمشيئة الله إلى مدينة أوترانتو بسلام ،
وهي مدينة ساحلية في أبوليا (١٠٩)

٧ - امبراطور القسطنطينية يغزو أبوليا بموافقة من
البابا-البطريك يصل الى البلاط مع مرافقيه.

في الوقت الذي كان فيه السيد البطريرك وأساقفة الشرق قد نزلوا في
أبوليا كما ذكرت من قبل كان امبراطور القسطنطينية قد أرسل عددا
من نبلائه مع مبلغ كبير من المال لاجتياح هذه المنطقة بالقوة وذلك
بناء على اقتراح من البابا ، وتم تنفيذ هذا بموافقة زعماء تلك
المنطقة ، وهكذا كان أتباع الامبراطور قد استولوا على تلك المدينة
عندما وصل البطريرك وحاشيته إلى برنديزي قادمين من أوترانتو
فقد كان السكان قد سلموا الموقع بأسره باستثناء القلعة التي بقي
فيها عدد من المخلصين المرتبطين بالملك ، وعلو على ذلك ، كان
الكونت روبرت ، المذكور آنفا ، قد استولى بالقوة بوساطة الذين
كانوا قد انضموا إليه بسبب كراهية الملك أكثر منه بسبب مودتهم له
نفسه ، على المدينتين الشهيرتين : تورانتو وباري مع سائر المنطقة
الساحلية حتى حدود المملكة نفسها ، وكان كل من روبرت أمير
كابوا وكونت أندرياس ، وهما رجلان مشهوران وعظيمان ، قد
استوليا على سائر منطقة كامبانيا التي تدعى عموما باسم أرض
العمل ، وذلك حتى سالرنو ونابولي وسدان جرمانو ، لقد كانت
المنطقة بأسرها بالفعل في حالة عدم استقرار من هذا القبيل إلى
درجة أن الذين رغبوا بالعبور خلالها لم يجدوا الأمن أو السلامة في
أي مكان (١١٠) كان فريديريك امبراطور الرومان ما يزال موجودا في
المنطقة المجاورة لأنكونا مع فيالقه ، لكن القوات التي كان قد جلبها
إلى إيطاليا كانت قد كابدت من خسائر ضخمة ، فقد كان الكثير من
الأمرء الأكثر نبلا وعظمة في الامبراطورية قد هلكوا بحيث لم يبق
سوى العشر من جيشه تقريبا (١١١) ورغب من بقي منهم على قيد
الحياة بالعودة إلى بلادهم ، وحيث لم يتمكن الامبراطور من

السيطرة عليهم فقد كان يستعد أيضا للعودة على مضض كبير حيث كانت أمور عديدة ما تزال تتطلب وجوده ، وكان أهمها على الاطلاق الحملة ضد ملك صقلية .

وبناء عليه تدارس البطريرك وزملاؤه المسافرون بقلق مسألة الطريق الذي يمكنهم اجتيازه بأمان بالغ عبر منطقة مضطربة للغاية للوصول إلى البابا حيث بدت الحرب والفتنة في كل مكان يقطعان كل السبل إليه ، وكان الطريق الأقصر هو عبر بنفنتو ، غير أن تلك المدينة كانت واقعة تحت الحصار الذي ضربه ارسقينيوس مستشار ملك صقلية (١١٢) ، وارسل البطريرك رسلا الى هناك لطلب حامية له ، الا ان المستشار رفض بشكل قاطع ان يسمح للفريق بعبور تلك المنطقة ، وأخيرا قرر البطريرك فولتشر بناء على نصيحة بعض الرجال الحكماء أن يسلك طريق الشاطئ ، ووصل مع أفراد حاشيته إلى أنكونا ، وأرسل من هناك بعض أساقفته لينقلوا تحياته إلى امبراطور الرومان (والذي كان الآن على وشك الرحيل إلى بلده ، كما ذكرنا من قبل) ليحصل منه على رسائل امبراطورية إلى البابا بخصوص مهمته ، ونجح المبعوثون في هذا المقصد على الرغم من أن الامبراطور ، كان متلهفا للعودة إلى البلاد ، وكان قد تجاوز مدينتي سينيغاليا وبيسارو (١١٣) .

ثم وجه البطريرك مع جميع حاشيته رحلته إلى روما في سعي حثيث وراء البابا الذي كان قد غادر مدينة نارني ، وبقي الوفد لعدة أيام في روما ، إلا أن البطريرك أسرع إلى فيرينتينو على أمل إنجاز المسألة التي كانت قد جلبته إلى ايطاليا ، وذلك بعدما علم أن البابا كان قد توقف هناك (١١٤) ولقد ذكر بعضهم أن البابا قد تجنب البطريرك لكي يضمجره ويزيد من عبء نفقاته ، وأكدوا أن الاستتارية كانوا قد زاروه منذ زمن طويل ، ورشوه باستخدامهم السخي للهبات ، ولذلك كان ميالا إليهم بشكل ايجابي ، وقال آخرون إن البابا كان قد أسرع رحلته في سبيل بنفنتو التي كانت واقعة تحت الحصار ، لكن الحقيقة كانت واضحة فقد كان البابا وبلاطه بأسره قد استقبلوا الاستتارية

بمودة كبيرة ، وعلى العكس كان قد تولى طرد البطريرك وشعبه بحنق وازدراء وعاملهم كأبناء عاقين وغير شرعيين .

٨ - البابا هارديان يحدث الخطأ الى بذفتو ، البطريرك يسرع ايضا الى هناك ويطرح القضية امامه لكن المحكمة التي تمت رشوتها بهبات سخية تذكرت للعدالة . البطريرك يعود دون ان يحقق هدفه.

قدم البطريرك نفسه لدى وصوله إلى فيرينتينو إلى الحبر الاعظم حالا حسب العرف ، إلا أنه لم يلاق استقبالا سارا ، وكانت المعاملة التي تعرض لها معاملة سيئة ايضا (١١٥) ، فقد كان الكرادلة معارضين له في اغلب الأحوال ، وهكذا توصل الى فهم واضح لموقف البابا تجاهه ، ومع ذلك ، بما انه كان رجلا يتمتع بشخصية ثابتة ، فقد تصرف وفق نصيحة بعض مستشاريه الحكماء واخفى مشاعره ، ولازم البابا بدون انقطاع ، وظهر باستمرار في المجالس الكنسية في ايام الاعياد وهو محاط بموكبه المؤلف من الاساقفة الميجلين ، وكان يساعده دائما حشد من المستشارين الجاهزين بمهامهم كلما تطلب الامر ذلك (١١٦)

وجرى في آخر الامر منح فرصة مقابلة لكلا الفريقين ودرست المسألة لعدة ايام دون نتيجة ، وأدرك البطريرك في النهاية - وهذا ما أبلغه إياه بالفعل عدد من أصدقائه الحميمين - أنه ليست لديه أية فرصة للنجاح ، ولذلك استأذن بالانصراف وبدأ رحلة عودته بارتباك وخوف فوضعه كان متضررا أكثر من كونه متحسنا . وعثر من بين كامل حشد الكرادلة على اثنين أو ثلاثة فقط يتبعون المسيح ، فقد رغبوا بصدق أن يسعدوا عبده في تلك القضية ، وكان هؤلاء كل من أوكتافيوس وجون أوف سان - مرتين وكان فيما مضى رئيسا لشمامسة البطريرك عندما كان البطريرك رئيسا لاساقفة مدينة صور (١١٧) إلا أن جميع الآخرين الذين ضللتهم

الهبات اتبعوا سبل بلعام بن بوسور . وقام البابا ، الذي حثته المسؤولين في البلاد ، بعبور كامبانيا والذهاب إلى بينيفنتو .

وكان في الوقت نفسه قد أبلغ العديد من الرسل وليم ملك صقلية بالاضرابات التي كانت سائدة في إيطاليا ، وقد علم أن الكونت روبرت أوف باسافيليا كان قد استولى بمساعدة الاغريق على منطقة أبوليا بقوة السلاح ، وأن أمير كابوا وكونت أندرياس كانا يوسعان حكمهما في كل مكان من كامبانيا ، وأن البابا كان قد ذهب إلى بينيفنتو حيث كان يزود جميع الحكام المذكورين منذ لحظات بالقوات والتشجيع ، ولذلك جمع وليم على الفور جنودا من جميع أنحاء صقلية وكالابريا وزحف إلى أبوليا على رأس قوة ضخمة جدا ، فهرب الكونت روبرت على الفور ، وهزم وليم القوات الاغريقية في المعركة الاولى التي جرت بالقرب من برنديزي ، وأسرقادة ذلك الجيش بعد أن أباده عن بكرة أبيه وأوثقهم بالسلاسل ، وهكذا رافقه حظ طيب وحاز بقوة السلاح على جميع الكنوز الطائلة التي كان الاغريق قد جلبوها معهم ، ثم قام بعدما استرجع المنطقة بأسرها التي كانت قد تمررت عليه وأعاد الناس لتأييده بحصار بينيفنتو وسبب هناك متاعب جمة للبابا وكرابلته وللمدينة نفسها أيضا حيث بدأ يقل مخزون المواد الغذائية ، وأصبح الجميع قلقين جدا حول سلامتهم ، وتم التوصل في آخر الأمر إلى اتفاقية سلام بين البابا والملك وكان ذلك بواسطة المندوبين العاملين كوسطاء ، وحسب بعض الشروط السرية ، وأقصت هذه الاتفاقية جميع الذين كانوا قد أصبحوا متورطين ، تلبية لاغواء البابا ، في هذه المشاق والمخاطر الجمة (١١٨) وأنرك النبلاء أن الامور انتهت خلافا لتوقعاتهم وأن البابا كان قد عقد اتفاقية سلام لنفسه ولكنيسة روما دون تحقيق أي امتياز لهم من الملك ، وشعروا أنهم كانوا في مأزق خطير ، وحاولوا بقلق العثور على طريقة ما يتمكنون بواسطتها من الانسحاب من المملكة بسلام ، وأسرع روبرت واندرياس مع بعض النبلاء الآخرين إلى لومبارديا ومثلوا أمام الامبراطور ، وحدث أن كان أمير كابوا أتعس حظا من الآخرين فقد اعتقله خدمه بينما كان

يستعد لعبور نهر غاريقلانو بوساطة أحد القوارب ، فقد كان قد أرسل أصحابه أمامه وجلس ينتظر مع عدد قليل من المسافرين للعبور الى الضفة المقابلة عندما تم اعتقاله ، وتم تسليمه لرعايا مخلصين للملك ، فنقل الى صقلية حيث سمل هناك وألقي في أحد السجون حتى أنتهت حياته التعيسة.(١١٩)

٩ - وقوع ثورة اهلية في مصر فرار السلطان ومقتله من قبل المسيحيين ، ابنة ناصر الدين يقع بالأسر .

كانت مملكة القدس تنعم في هذا الوقت ، بفضل الله ، بدرجة مقبولة من الازدهار ، إلا أن البلاد المجاورة والواقعة على الجانبين كانت مضطربة اضطرابا عظيما بسبب وقوع حدث مفاجيء ، فقد قامت شخصية مصرية قوية ، كانت تشغل منصب وزير وكانت مسؤولة عن الامور الخاصة لمولاها (١٢٠) بقتل الخليفة حاكم مصر الذي اعتاد المصريون على تبجيله وتوقيره كشخصية مقدسة جدا ، فقد حدث أن أتى هذا الوزير في أحد الايام وبطريقة غير رسمية الى الخليفة في احدى الغرف الأكثر انعزالا في القصر وقتله بغدر ، ويقال إنه ارتكب هذه الجريمة أملا في ترقية ولده ناصر الدين الى الخلافة ، بحيث يتمكن نفسه في ظل حكم ابنه من الاستمرار في ادارة المملكة دون قلق أو متاعب ، وكان واثقا من أن العمل الذي ارتكبه لن يكتشف لعدة أيام ، حتى يكون قد استولى على القصر الكبير ، ويكون قد تمكن من حيازة الخزينة بأسرها ، وتوقع بمساعدة عصابة من الاصدقاء والتابعين الذين كان قد جمعهم أن يكون قويا بشكل كاف ليقاوم الذين سوف يحاولون قتله جزاء على جريمة القتل التي ارتكبتها ، إلا أن المسألة انتهت بشكل مخالف تماما ، حيث اكتشفت الجريمة في غضون زمن قصير ، واجتمع حشد من الناس العظماء والوضعاء ، كرجل واحد وطوقوا تطويقا تاما المنزل الذي كان قد هرب إليه بعد أن ارتكب الجريمة ، وطالبوا

بصوت واحد بتسليم السفاح الغادر الذي اغتال حاكم البلاد ليلقى عقابه ، واستمرت هذه التهديدات بشكل ملح ، حتى أنه رأى في آخر الأمر بأنه لا يوجد أي سبيل للنجاة ، فأمر بالقاء الذهب والجواهر وجميع الأشياء الثمينة التي كانت بحوزته من النافذة الى الحشد الصاخب من الناس ، وأمل أنه قد يجد طريقة ما للنجاة ، بينما يكون الحشد منشغلا بالتقاط المغانم ، فهل هناك حاجة لقول المزيد ؟ ونجح بالنجاة من المدينة على الرغم من الحشد المحاصر من الناس ، وسلك برفقة موكب مهيب ، من الأبناء وأبناء الاخوة والأخوات الطريق المؤدي الى الصحراء والمؤدي الى دمشق ، كما يقال ، ولم يتباطأ المنتقمون في مطاربتة وبنذلوا محاولات قوية للحيلولة دون نجاحه ، غير أن ابنه الأكبر وبعض أفراد حاشيته من الرجال الشجعان والحكماء أعاقوا الخصم وأبقوه بعيدا وتحملوا الهجمات بأنفسهم ، ومنعوا المطاردين من الفوز بالهارب ، وتركوا وراءهم وبشكل خادع من وقت لآخر جزارا ذهبية وفضية وأثوابا نفيسة وأنسجة حريرية ذات قيمة كبيرة لاغراء اللاحقين بهم ليتوقفوا ويجمعوا هذه الأشياء بحيث يمكن بوساطتها أن يذشب نزاع حول تقسيم الغنائم(١٢١)

أدرك المصريون أخيرا أن مطاربتهم كانت عقيمة وعادوا مرتبكين الى البلاد ، ومضى الوزير قدما الى الأمام في طريقه معتقدا أنه بأمان ، ووثقا أنه لن يتعرض لمتاعب أخرى ، إلا أنه وقع في المويلح أثناء هروبه من القاهرة لأن المسيحيين العالمين باقترابه كانوا قد نصبوا كمينا له ، وهو وسيلة شائعة للاحاق الأذى بالعدو ، وكانوا يكمنون خلسة هناك. ووقع الوزير في الشرك وهو غير متوقع أبدا ، وأصيب في المواجهة الأولى بجراح مميتة نتيجة تلقيه ضربة سيف وهلك بالحال ، وكان هذا النبيل المصري يدعى عباس (١٢٢) ووقع ابنه ، ناصر الدين ، مع سائر أفراد أسرته والكنوز الكبيرة التي كانوا قد نقلوها معهم من مصر بأيدي المسيحيين ، فقسما الغنيمة فيما بينهم حسب العرف. وبالمحصلة

عاد شعبنا الى البلاد محملا بأثمن المغانم التي كانت بالفعل من أكبر الكنوز التي لم تعرفها بلادنا حتى الآن.

كان من بين الذين شاركوا في تلك المسألة العديد من فرسان الداوية وبفضل أعداد هؤلاء الفرسان ، جرى نقل القسم الأكبر من المغانم بما في ذلك العبيد . وكان من بين ما حصلوا عليه وانتقل اليهم بالقرعة أثناء توزيع المغانم ناصر الدين بن عباس ، وكان شجاعا جدا وصاحب قدرات عسكرية غير عادية بين المصريين ، فقد كان أهالي تلك الاقليم يخافون من اسمه ، وكانت ترتجف قلوبهم برعب لا يوصف لدى رؤيتهم له ، وأبقى فرسان الداوية هذا الرجل أسيرا لديهم لفترة طويلة من الزمن ، وعبر عن رغبة متوقدة لأن يؤمن بالمسيح ، وكان قد تعلم اللاتينية ومبادئ العقيدة المسيحية عندما باعه الداوية الى المصريين مقابل ستين ألف قطعة ذهبية ، حيث طالب به المصريون ليلقى عقوبة الموت ، فقيدت أيديه وأرجله بسلاسل ثقيلة ووضع في قفص حديدي على ظهر أحد الجمال ونقل الى مصر حيث مزقه الناس الى أشلاء بأسنانهم حتى يشبعوا عواطفهم المتوحشة (١٢٣)

١٠ - الأمير أرناط يستولي على جزيرة قبرص بقوة السلاح ، ويسلب السكان.

اقترب أرناط أمير أنطاكية ، عملا مخزيا خلال العام اللاحق وذلك تنفيذا لنصيحة رجال أشرار كانوا قد أثاروا عليه كثيرا ، وأرسل فيالقه كما يرسلها ضد الأعداء ، واستولى بعنف على جزيرة قبرص المجاورة التي كانت مفيدة دائما وصديقة لملكنا ، والتي كان فيها عدد كبير من السكان المسيحيين ، ويبدو أن الأسباب التي قامت الى هذا الغزو الشائن كانت على النحو التالي : كان يعيش في منطقة كليكية على مقربة من طرسوس نبيل

أرمني قوي يدعى طوروس ، وكان هذا الرجل بنزواته قد تعرض مرارا لغضب الامبراطور وجلب تقريعه على نفسه نتيجة نزواته وغدره ، وبما أن مناطقه كانت بعيدة جدا عن الامبراطورية وقد تعذر بلوغ مقره الموجود في الجبال الشاهقة ، فقد نزل مرارا الى سهل كليكية ونقل المغنم والأسلاب ، ونهب بدون تردد بلاد مولاه بكل وسيلة وألحق مضارا بالغة وباهظة بالمؤمنين من رعايا الامبراطورية بدون مراعاة للمنزلة أو الوضع ، وعندما أبلغ الامبراطور بهذه الحالة كتب الى أرناط أن يبعث فرسانه ويبعد طوروس عن أراضي الامبراطورية حتى تأمين ممتلكات رعاياه من غزوات كهذه ، وإذا كانت هناك حاجة للمال لذلك الهدف ، فلسوف يرسل اليه بنفسه بالوقت المناسب مبلغا كافيا من خزائنه.

واستجابة منه للأمر الامبراطوري استدعى أرناط على الفور ، قوة كبيرة من الفرسان وتقدم الى كليكية حيث طوروس وأباد جيشه اباداة تامة ، وبنت المكافأة المشرفة ، التي كان يأمل باستلامها على عمله الشجاع ، بطيئة في الوصول ، ولذلك اقتترف الجريمة المشار اليها آنفا بعدما نفذ صبره من الانتظار (١٢٤)

كان بعض المؤمنين قد حذروا أهالي قبرص من الخطر ، وكانت جميع قوات الجزيرة قد اجتمعت إلا أن الأمير أرناط ، الذي تولى الهجوم عليهم ، هزم جيشهم على الفور وبدد قواتهم بأسرها بحيث لم يجرؤ بعد ذلك أحد على رفع يده ضده ، ثم اجتاح الجزيرة بدون أن يواجه أية مقاومة ، ودمر المدن وضرب القلاع واقتحم أديرة الرهبان والراهبات على حد سواء ، وأساء معاملة الراهبات والعداري الضعيفات بشكل معيب وعلى الرغم من أن الأثواب الثمينة وكمية الذهب والفضة التي نقلها كانت كبيرة ، يعد فقدان هذه الاشياء لا يساوي شيئا بالنسبة الى خرق الحرمات (١٢٥)

وتابعت قوات أرناط سلب المنطقة بأسرها لعدة أيام بدون توقف ، وحيث لم يكن هناك من يبدي مقاومة ، فإنها لم تظهر أية

رأفة نحو السن أو الجنس كما لم تفرق بين الأحوال ، وعادت في النهاية الى شاطئ البحر وهي محملة بمقدار كبير من الثروات والمغانم من كل نوع ، وركبت متن السفن عندما كانت جاهزة وأبحرت الى أنطاكية ، وجرى هناك خلال زمن قصير تبديد جميع الثروات التي تم الحصول عليها بطريقة شريرة ، وكما يقول المثل : « لا تعطي المغانم المكتسبة بطريقة شريرة نتائج طيبة » (١٢٦)

١١ - الملك يأسر بعض الأتراك والعرب في غابة بانياس دون اعتبار للمعاهدة التي كان قد عقدها من قبل معهم.

في هذه الآونة كانت مجموعة ضخمة من العرب والتركمان قد اجتمعت في غابة قريبة من مدينة بانياس بأعداد كبيرة لم يسبق لها مثل ، ويعيش هؤلاء الناس عادة في خيام كالبداة ويعتمدون في غذائهم على اللبن (١٢٧) وتعرف الغابة حاليا باسم غابة بانياس ، وهو اسم المدينة الواقعة بالقرب منها ، إلا أن المنطقة بأسرها ، بما في ذلك تلك الأجزاء التي تمتد الى الشمال والجنوب إضافة الى ذلك الجزء الذي يغطي لبنان نفسه ، كانت تسمى في الأزمان القديمة باسم غابة لبنان ، وورد في الكتب المقدسة أن سليمان شيد في هذه الغابة قصرا جميلا رائع البنيان وكان يسمى بيت الغابة اللبنانية (١٢٨) بيد أن المنطقة بأسرها تحمل في هذه الأثناء كما قلنا من قبل اسم المدينة المجاورة لها ، وكان الناس المذكورين منذ لحظات قد دفعوا الى داخل هذه الغابة عددا كبيرا من الحيوانات ، وبشكل رئيسي الخيول ، بسبب المرعى الممتاز الذي كان موجودا فيها.

إلا أن بعض الرجال الأشرار أبناء الشيطان الذين لم ينصبوا أية خشية من الرب أمام أعينهم اقتربوا من الملك وأقنعوه بسهولة بالموافقة على خططهم الشريرة ، وعلى الرغم من وعده المخلص

والمعاهدة التي عقدها مع هؤلاء البدو (١٢٩) ، فقد اقترحوا عليه ان
يشـن
هجومًا مفاجئًا عليهم بعد أن يكونوا قد أولجوا قطعانهم ودوابهم الى
الغابة لترعى ، ويجعلهم هم وحيواناتهم فريسة لشعبه ، ومال الملك
بسرعة الى هذه الخطة لأن الديون أرهقته وكبلته واجبات كثيرة لم
تكن لديه أية وسيلة للأيفاء بمطالبها ، اقتنع بها بسهولة كاقتناعه
بأية خطة يمكن بواسطتها تخفيف الضغط الذي يتعرض له ، وأصغى
له ، وأصغى باستعداد للناصحين الأشرار ووافق على اقتراحهم ،
واستدعى ، بعدما ضللتته نصيحة الرجال الأشرار ، فرسانه وشن غارة مفاجئة على أولئك
الناس ، وهاجمهم كأعداء ، بعدما وجدهم غير مستعدين وليس
لديهم أدنى تفكير بأي هجوم ، وسلمهم الى قسوة أتباعه وعنفهم
وتمكن بعضهم بفضل خيولهم السريعة أن ينفذوا أرواحهم
بالهروب ، ونجا آخرون تدفعهم الضرورة في ذلك ، بالاختباء في
الغابات ، لكن جميع الباقين قتلوا بالسيف أو اقتيدوا الى عبودية
وحشية.

ولقد قيل إن عدد الأسرى ومقدار المغنم التي تم الاستيلاء عليها
في هذه الغارة لم يسبق له مثيل في بلادنا ، فقد وزع عدد كبير من
الخيول بالقرعة ، ونال جميع الأفراد نصيبًا من هذا التوزيع حتى
الذين ينتمون منهم الى الطبقة الأدنى مقاما ، ومع ذلك ، فإن هذا
العمل لم يجلب شهرة متألقة أو جديرة بالثناء لشعبنا لأنهم كانوا قد
انتهكوا معاهدة سلام وأسأؤوا بالفعل معاملة اناس غير
مرتابين ، اناس كانوا يثقون بحسن نية الملك ولم تكن
لديهم - علاوة على ذلك - أية وسيلة للمقاومة.

إلا أن الله ، رب الانتقام ، الذي ينزل عقوبة عادلة على
المنذنين ، لم يتركنا نستمتع بمكافآت إثمنا لفترة طويلة من
الزمن ، وبالفعل ، أوضح على الفور أنه ينبغي المحافظة على الوفاء
بالعهد حتى مع الكفرة ، وانتقم منا عقابا على تلك الجريمة وسبب

هلاكنا ، وضاعف عقوبته لنا بسبب أثامنا الكثيرة وأحاقنا بالارباك
كما سيتم توضيح ذلك في الصفحات القادمة.

١٢ - همفري كافل المملكة يمنح نصف مدينة بانياس
الى الاسبتارية. نور الدين يستولي على المؤن المجلوبة
الى هناك ، المدينة نفسها تتعرض للحصار.

ضاق في هذه الآونة همفري أوف تيرون ، كافل المملكة من
استمرار مسؤوليته عن مدينة بانياس وانفاقه عليها بعدما
ورثها ، ونظرا لعدم تمكنه من حكمها وحمايتها بشكل مناسب بدون
مساعدة ، قرر وبموافقة الملك أن يتقاسمها بشكل متساو مع فرسان
الاسبتارية ، وكانت الشروط المتفق عليها بموجب هذه التسوية على
الشكل التالي: يتملك الاسبتارية نصف المدينة وجميع ممتلكاتها
المحيطة بها ، ويتوجب عليهم تحمل نصف النفقات لجميع الأشياء
اللازمة والمفيدة ، وتحمل المسؤولية القانونية تجاه المدينة.

كانت بانياس تقع على حدود بلاد العدو ، وكانت قريبة منه جدا
بحيث لم يتمكن أحد من الاقتراب من المدينة أو مغادرتها دون
التعرض للمخاطر الا إذا كان ضمن جماعة قوية أو إذا سلك طرقا
سرية ، وبعدما تولى الاسبتارية القيام بمسؤولية نصيبهم من
المدينة ، رغبوا بوضع الموقع في حالة دفاعية جيدة ، وجمعوا لتحقيق
ذلك الهدف كميات كبيرة من المؤن والاسلحة ومجموعة من الجنود
ايضا ، وبينما كانوا يتقدمون في أحد الأيام ومعهم قطار كبير من
الجمال وحيوانات النقل الأخرى المحملة بالمؤن تحت حراسة
مجموعة من الفرسان ، الذين توجب عليهم قيادة الحملة بأسرها إلى
المدينة بكل ما تحتاجه من مؤن وعتاد لفترة طويلة ومقبلة ، ومع
اقترابهم من المدينة مع قطارهم بمجملة انقض عليهم الكفرة الذين
كانوا قد أخطروا باقترابهم واستخدم الأتراك سيوفهم بقوة ومزقوا

خط السير المسيحي وقتلوا كثيرا من أفرادهم ، ثم استولوا على الأمتعة ، بينما هرب الباقون على قيد الحياة لينقذوا أرواحهم ، وأما الذين منعهم الهجوم العنيف ، الذي شنه العدو ، من الهروب فقد قتلوا بالسيف أو أسروا ، وهكذا سقطت في أيدي الكفرة جميع المؤن ، التي كانت قد جمعت لتجهيز المدينة ، ليتم استخدامها ضد المدينة ، وانسحب الاستبشارية من الاتفاقية التي كانوا قد عقبوها ، لأنهم خافوا من تعرضهم بعد هذه الكارثة لخسائر ومحن مشابهة ، وأعادوا مدينة بانياس مع أعبائها وأجودها الى كافل الملكة (١٣٠)

قرر نور الدين على الفور ، بعدما شجعه هذا النجاح ، انتهاز الفرصة ليحاصر بانياس حيث كانت الكارثة قد أنهكتها ، فاستدعى فرسانه ونقل آلاته الحربية الى المدينة وظهر فجأة أمامها ، فوضعت القوات في دائرة حولها ، وبدأت عمليات الحصار ، وكان هنالك قلعة في أحد أجزاء بانياس ، وكانت مجهزة بشكل جيد بالأسلحة والرجال ، وبكمية من المواد الغذائية تكفي لفترة قصيرة من الزمن ، وكانت هذه ستؤمن ملاذا للسكان حتى وإن تم الاستيلاء على المدينة ، إلا أن الناس كانوا يثقون ثقة كبيرة في تحصينات مدينتهم لاسيما وأنهم كانوا قد تحملوا مرارا هجمات مشابهة ، ولذلك قرروا بذل محاولة قوية للدفاع عنها ، ولولم يشعروا بثقة مفرطة في أنفسهم لكانوا قد نجحوا بالفعل كما كانوا يأملون ، ولذلك فقد استمروا بالعمل بون حذر مناسب.

هاجم نور الدين بالآلات الحربية والقاذفة ، وواصل في الوقت نفسه قذف وابل مستمر من السهام بحيث لم يترك للمحاصرين أية راحة ، واضطروا الى أن يقاتلوا ليل نهار بجراح مميتة ولم تبق الا قلة قليلة لتواصل الدفاع ، ولولم يكن كافل الملكة وابنه - الذي ضاهى بسالة والده - قد أظهرتا استعدادهما للقتال بحماسة دفاعا عن ممتلكاتهم الوراثية وشجعا الآخرين بالمثل الذي ضرباه في

المقاومة ، لكان السكان - الذين أنهكتهم الجهود البطولية التي بذلوها ، قد استسلموا بلا ريب أمام القوة المتفوقة لأعدائهم ، وكما قيل: إن وجود أسيادهم ثبتهم ونجحت الشجاعة المتفوقة لقائتهم والمشرفين عليهم في بعث الحماسة في أنفسهم ، وجدت قوتهم المتناقصة وقدمت لهم شجاعة جديدة للمقاومة.

وفي أحد الأيام ، بينما كان العدو يشدد الخناق بعنف أكثر من المعتاد فتج المحاصرون باب المدينة وقاموا بالانقضاض على العدو في الخارج ، وبما أنهم أنشبووا القتال دون اتخاذ احتياطات مناسبة فقد أثاروا ضدهم حشدا كبيرا من الأعداء ، واندفع الاتراك نحوهم ، وحاول السكان الانسحاب الى المدينة بعدما عجزوا عن المحافظة على موقعهم ، وتعذر اغلاق الباب بسبب الضغط الكبير الذي بذله الحشد للدخول ، وهكذا ، اختلط العدو مع سكان المدينة ودخل المدينة بأعداد كبيرة بحيث تم الاستيلاء عليها بالقوة ، وأرغم المسيحيون على الانسحاب الى القلعة في ظل مخاطر شديدة ومع التعرض لخسائر بشرية كبيرة (١٢١)

و في هذه الأثناء كان الملك قد علم أن بانياس كانت تكابد شدائد رهيبية على يدي نور الدين ، و انها كانت على وشك السقوط بالفعل ، فجمع بالسرعة الممكنة جميع القوات المتوفرة في ذلك الوقت من الفرسان و الرجال على حد سواء ، و زحف نحو بانياس بسرعة و معه فيآلقه ، و كان مصمما على رفع الحصار أو أن يجرب حظه و يغامر بالقتال مع نور الدين.

١٣ - الملك يسرع الى بانياس ويرفع الحصار. جيشنا يسير في طريق العودة دون حذر مناسب ويقع في كمائن خطيرة.

ما أن سمع نور الدين خبر قدوم الملك لتحقيق هدف محدد حتى رفع الحصار ، لأنه لم يكن راغبا بالاعتماد على فرص القتال غير

المؤكدّة العواقب ، هذا وقام قبل رحيله بذسف واحراق المدينة التي كان قد استولى عليها بالقوة ، ولم يأذن للقوات التي كان قد جمعها بالتفرق بل أبقاها معه ببصيرة و بعد نظر قوي ، لابل زاد ذلك بأن استدعى قوات كبيرة و كمن في الغابة المجاورة منتظرا نتيجة الأحداث.

جلب وصول الملك إلى بانياس المساعدة التي انتظرها المحاصرون بتلف ، و وعد بأنه سيبقى حتى يتم تشييد المواقع المتهدمة و ترميم الصدوع و الثغرات و تعاد المدينة بأسوارها المرممة إلى حالتها السابقة ، و استدعى البنائين من المدن و المنطقة المجاورة بأسرها ، كما استدعى جميع الذين كانت لديهم بعض الخبرة في فن البناء ، و رممت الأسوار و الأبراج بشكل كامل ، و جدت الشرفات و المتاريس . و أعيد بناء منازل السكان الموجودة داخل محيط الأسوار ، و أعيدت الابنية العامة إلى وضعها الأصلي لأن نور الدين كان قد اهتم اهتماما كبيرا خلال احتلاله للمدينة بتدمير هذه الابنية تدميرا تاما.

شعر الملك و نبلاؤه عندما انتهى كل شيء أنه لم يعد هناك ضرورة لاقامتهم لفترة أطول هناك لمصلحة السكان ، و كان كل شيء قد تجدد الآن تماما ، و جهزت القلعة بالأسلحة و المواد الغذائية و الجنود بشكل يكفي للوقت الحالي ، و بناء عليه صرف الملك قوات المشاة و صمم أن يعود إلى طبرية برفقة سرايا الفرسان فقط ، و انطلق من بانياس ووجه سيره نحو الجنوب و خيم بالقرب من بحيرة الحولة ، و استراح الجيش هناك تلك الليلة دون أن يتخذ تدابير أمنية مناسبة ، و دون التقيد بأنظمة المعسكرات و بشكل يخالف كثيرا في الواقع ما كانت تتطلبه مقتضيات النظام العسكري.

يحدث مرارا أن الناس يصبحون مهملين إلى حد ما عندما تسير الأمور بنجاح و سعادة ، و يبدي الرجال عادة اهتماما زائدا بأمورهم في المحن (١٣٢) ، و يحتمل أن الفكرة ذاتها متضمنة في هذا القول.

بشـــــــــــــــــ كل جيد:» يســـــــــــــــــ قط عن جـــــــــــــــــ انيك الف»
(وربما على اليسار) ، وعشرة الاف عن يمينك «(١٣٣) ، لأن
الغالبية تندفع عادة تحت شروط التقدم والازد هار إلى الهلاك
مباشرة وهي مزهومة بالنجاح : وعلى العكس فإن الاخطار تعلم
الذين أنهكتهم الخسائر والمحن أن يتصرفوا بتعقل في ظروف
مستقبلية مبهمة وأن لا يتقوا بالحظ أبدا حيث يكون قاسيا كما تظهر
تجربتهم .

وحيث كان الملك يفكر بحقيقة أنه كان قد اجبر هذا الأمير
العظيم على الانسحاب من حصار بانياس ، فقد كان يثق أن نور
الدين قد ابتعد الان كثيرا مع قواته ومن المحال أن يكون تمكن من
جمع مثل هذه الأمم الكثيرة ضده وضد شعبه ولذلك بدأ يبدي حذرا
قليلًا جدا ، كما قلنا ، وكان ميالا لغض النظر بإفراط ازاء نزوات
الافراد ، ووصل على الفور نبأ إلى العدو الذي كان مترصدا في كمين
أنه تم صرف قوات الملك من المشاة وأن بقية الجيش كانت مخيمة
بطريقة فوضوية وغير حذرة بالقرب من بحيرة الحولة ، وذكر ايضا
أن بعض القادة كفيليب صاحب نابلس واخرين كثر كانوا قد غادروا
مع فرقهم ، وهكذا ، لاحظ الكفرة ان الامور انتهت حسب رغباتهم
ونقلوا معسكرهم بسرعة ، وعجل قائدهم البارح الامور لمعرفته
بموائمتها وساق الجيش بزحف سريع في ذلك الاتجاه ، ووصلت
قواته على الفور إلى الاردن الواقع بين الجيشين وعبرت النهر
وكمنت في موقع يدعى عموما باسم مخاضه يعقوب الواقعة على هذا
الجانب حيث سيعبرها جيش الملك في اليوم التالي .

استأنف الجيش المسيحي سيره عند الفجر وكل من فيه غير
عالم بالكمين الذي نصب اثناء الليل ، وجاهل ايضا بخطط اعدائه
وتوجه الى الموقع الذي كان الاتراك قد سيطروا عليه خلسة ، وكانت
عناصر الجيش المسيحي تتقدم بسلام وهمي غير خائفة من وقوع
اي حادث مشؤوم عندما انطلق فجأة الذين كانوا تقدموا وهم

مبتهجون دون خوف من الخطر سيوفا مسلولة لعدو مصمم على قتلهم واصابتهم بجراح ، فثار غضب المسيحيين ولكن بعد فوات الاوان وادركوا ان معركة خطيرة كانت على وشك الحدوث فواقفوا ثرثرتهم التافهة وهرعوا الى خيولهم واخذوا اسلحتهم ، الا ان صفوفهم ابيدت قبل ان يتمكنوا من وضع انفسهم بتشكيل المعركة والاحتشاد للدفاع حيث هاجمهم العدو بعنف ومن مواقع متلاحمة بالمبارزة وهكذا كان من المحال بالنسبة لجنودنا الصمود مع بعضهم في اي موقع ما خلا مجوعات صغيرة جدا .

١٤ - فرار الملك من ميدان المعركة وانسحابه الى قلعة صفد انهزام الجيش ووقوع معظم القيادة في الأسر .

بقي الملك محاطا بعدد قليل من الفرسان الذين بقوا مصممين على الوقوف الى جانبه ، لكنه أدرك أن الصفوف تمزقت وان الجيش المضطرب كان معرضا لحنق العدو في كل مكان ، وعلاوة على ذلك كانت قوة العدو تزداد من كل الجهات بينما كانت صفوفنا تنهار كما كانت الحالة في الواقع منذ البداية ، ولذلك ، تراجع الملك بحكمة الى هضبة مجاورة ليحتاط لسلامته ، ونجح من هنالك بصعوبة كبيرة في بلوغ قلعة صفد الواقعة على الجبل نفسه متجنباً العدو الرابض على يمينه احيانا وعلى شماله احيانا اخرى ، وبفضل الحصان الذي نقله ، وقد اسر عدد كبير جدا من قاداتنا في ذلك اليوم ، ولم يقتل سوى عدد قليل جدا منهم ، وبما ان جميعهم كانوا بدون تمييز محاربين مشهورين بالحكمة والخبرة في الحروب ، ومضاربين متماثلين فقد استسلموا دون مقاومة لينقذوا ارواحهم التعيسة كأخط انواع العبيد وبصرف النظر تماما عن نير العبودية وخزيه وعن وصمة العار التي ستلتصق بأسمائهم الى الأبد .

وكان بين الاسرى النبيل اللامع هيودي ابلين ويودس دي سينت

اماند وكان قائدا للقوات الملكية وجون غوتمانوس وروهارد صاحب يافا ، واخوه بالين وبرترانددي بلانكفورت وهو مقدم فرسان الداوية وكان رجلا متدينا ويخشى الرب واخرون كثر واسماؤهم غير معروفة من قبلنا .

لقد اعاد الرب الينا ثمار اعمالنا الشريرة ، تماما حسبما تستحق اسالينا وسلوكيتنا ذلك اننا نحن الذين كنا في ازدياء للقوانين الانسانية قد ظلمنا الابرياء بشكل جائر وعسفنا ايضا انفسنا بالذين اعتمدوا على اخلاصنا ورميناهم في فوضى من معيار واحد ولذلك غدا - عقوبة لاثامنا - اللامعون موضع لوم واحتقار الامم الدنية وتعرضوا لسخرية العدو : « تجعلنا مثلا بين الشعوب لانغاض الراس بين الامم » (١٣٤)

ومع ذلك لم يعاملنا الرب بشفقته الكبيرة دون رحمة تماما كما لم يمنع رافته على الرغم من غضبه علينا لانه انقذ الملك فلو كان ملكنا قد سقط في ذلك اليوم لكانت المملكة قد وقعت في خطر جسيم بلاريب اسأل الرب ان يمنع حدوثه لانه في حالة سقوط فارس واحد مهما كان عظيما تبقى المسألة متعلقة بمصير رجل ، واحد لكن الخطر الذي يتعرض له الملك يشتمل على خطر للامة بأسرها ، وهكذا فان داود المخلص الذي كان مليئا بالقلق حول ملكه توسل قائلا : « يارب احفظ الملك » .

ونشأ قلق كبير في كل مكان من المملكة بسبب شائعات انتشرت في هذا الوقت تضاربت بمحتواها بخصوص سلامة الملك ، حيث قال بعض الناس انه قتل بالسيف ، وقال آخرون انه أخذ أسيرا بين بقية الأسرى على الرغم من أن العدو لم يتعرف على هويته ، وأشيح أيضا أنه كان ، بفضل الرحمة السماوية ، قد نجا سليما من وسط المعركة ، وأحس جميع الناس بقلق عميق حول مصير ملكهم مثل قلق أم مخلصه حول مصير ابن وحيد لها ، وبما أنهم كانوا جاهلين

بمصيره فقد تخيلوا أن الشيء الأسوأ قد يحدث بتعاطفهم الشفوق من أن يكون مصيره الموت .

ولكن الحقيقة أن الملك أسرع الى عكا عندما وجد نفسه على مسافة مناسبة من العدو برفقة العدد القليل من الفرسان الذين كانوا قد تبعوه الى صغد ، ومع بعض الآخرين الذين كانوا قد نجوا من أخطار اليوم السابق ، فرحب به الناس بصيحات ابتهاج متحمسة وكأنه عائد من الموت .

حدث هذا من شهر حزيران في اليوم الثالث عشر قبل بداية شهر تموز في العام الرابع عشر من حكم بلدوين (١١٣٥)

١٥- نور الدين يحاصر مدينة بانياس للمرة الثانية دون نجاح لزحف الملك نحوه .

اجتاح نور الدين المنطقة بأسرها وأغنى نفسه بالمغانم المأخوذة الآن من هذا المكان وفيما بعد من مكان آخر ، سيما وأنه كان محاربا لا يعرف التعب تواقا لمواصلة تحقيق نجاحاته ، فقد استدعى كتائبه مجددا وأمر بجمع قوات كبيرة أيضا من دمشق ومن جميع المناطق الخاضعة لسيطرته ، لأنه كان مصمما على محاصرة بانياس للمرة الثانية ، ولم يكن أي شيء أكثر بعدا عن تصوراته من أن يحضر من جديد الملك والنبلاء الذين كان قد أباد قواتهم تماما ، لانقاذ المحاصرين ، ولذلك قام بتنفيذا لخسطه بضرب الحصار مجددا حول مدينة بانياس ووضع آلاته الحربية العديدة في مواقع استراتيجية ، فهزت الضربات القوية للقذائف الحجرية الأبراج وأضعف الأسوار ، وتساقط في الوقت نفسه وابل من السهام والنشاب كالبرد ومنع المقاومة كلها من جانب الذين كانوا في الداخل ، الا أن أهالي بانياس ، المتذكرين كم كانت عقيمة الجهود التي بذلوها لانقاذ المدينة من الحصار الذي انقضى منذ لحظات ،

انسحبوا مع بعضهم طواعية الى القلعة للحيلولة دون محنة مماثلة .

عندما غادر كافل المملكة المدينة ليتدبر بعض المسائل الأخرى ، كان قد عين قريبا له في القيادة العليا يدعى غي دي سكاند ليوم ، وكان رجلا صاحب خبرة واسعة في الحرب ، الا أن ولاءه كان مريبا ، وكان رجلا لا يخشى الرب وقد حاول هذا الرجل بالقول والقعدة أن يلهب حماسة الآخرين لبذل المقاومة من أجل الرجل الذي كان قد حملة المسؤولية وبسبب سمعته الشخصية أيضا وخشية من أن تتناقص الشهرة التي كانت بسالته الحربية قد حققتها له ، وأكد لهم أن النجدة ستصل فورا ، وأن شهرة رائعة وأبدية تنتظر الذين يستحقونها ، ونتيجة لذلك ، قاتل الجميع وكانهم يحاربون لمصلحتهم الشخصية ، وأثارت مقدرتهم في تحمل السهر الطويل والمشقات المستمرة دهشة العدو واعجابه ومع ذلك ، فقد أصر الأتراك ، على القتال بكل قوتهم ضد عدو قوي مثلهم قاوم أيضا الى الحد الأقصى ، وألحقوا كوارث بلا حدود بالمدافعين ، وكانت أعدادهم كبيرة ، وتمكنوا من نجدة بعضهم بعضا بالتناوب ، وعلى عكس ذلك لم يكن لدى المسيحيين أية احتياطات ليعززوا بها قوتهم ، وكان الضغط اليومي يدفعهم الى حافة الاستسلام تقريبا .

علم الملك في هذه الأثناء أن مدينة بانياس كانت تعاني من شذائد رهيبة ، كما لم تحتجب هذه الحقيقة عن أعين نبلاء المملكة الذين كانوا مايزالون على قيد الحياة ، فجرى ارسال الرسل على الفور الى أمير انطاكية وكونت طرابلس لحثهما على الاسراع لنجدة المدينة بدون تأخير ، وأرسل الملك المنادين لاستدعاء القلة الباقية من الفرسان في المملكة ، وهكذا حدث بفضل الرحمة السماوية أن وصل هذان الأميران الشهيران مع مواكبهما المهيبة الى المعسكر الملكي في غضون زمن قصير ، وبشكل أسرع مما كان يتوقع بالفعل ، وكان

يمكن مشاهدة المدينة على مقربة من هذا الموقع الذي كان قريبا من حصن هونين في مكان يدعى « النقطة السوداء » (١٣٦)

أبلغ نور الدين على الفور أن القائدين كانا قد انضموا الى الملك ، وكانوا جميعهم يستعدون للزحف الى مدينة بانياس ، وكان هذا الأمير يتمتع بحكمة وبصيرة كبيرة في ادارة أموره ، فاعتقد أنه من الحكمة تجنب تقلبات المعركة بمخاطرها وأحداثها المجهولة وذلك على الرغم من أنه كان قد نجح في تسبب الكثير من الصدوع في الحصن ، وكان المحاصرون قد فقدوا كل أمل بالمقاومة ، ولهذا تخلى عن الحصار وانسحب الى مكان بعيد في مملكته .

١٦- وصول ثيري كونت فلاندرز بحرا . إرسال الرسل الى القسطنطينية للبحث عن زوجة للملك .

وهكذا كانت أحداث كثيرة متباينة وواسعة الاختلاف تقع في المملكة ، وكانت البلاد مهجورة لأن معظم قائدتا كانوا في الأسر ، وصنف أن حدث في هذا الوقت بفضل الرحمة الربانية أن نزل ثيري كونت فلاندرز في ميناء بيروت مع زوجته سيبيلا وهي أخت الملك من أبيه ، وكانت زيارات هذا الرجل البارز والمشهور التي حدثت أكثر من مرة ذات عون كبير وعزاء لنا .

ورحب به جميع الناس بابتهاج كبير ، حيث بدأ وصوله مع حاشيته يبشر أن محنة المملكة التي لاتحتمل ستخف الآن على نطاق واسع ، واتقدت آمال الذين تلهفوا بإخلاص لاحلال السلام في المملكة لأنه تولى فور وصوله وكأنه ملاك الرأي المصيب ، تسوجيه أمورهم وقائتهم قدما الى الامام من أجل مصلحة المملكة ومجد العقيدة المسيحية كما يتم ذكر ذلك فيما بعد (١٣٧)

وفي هذه الأونة بدت مشكلة الملك الذين لم يكن قد تزوج حتى

الآن على الرغم من بلوغه سن الرجولة ، ستكون ذات اهتمام كبير للامراء المدنيين والكنسيين في المملكة ، وكان الشيء المهم للغاية أن يكون له أطفال حتى يخلفه ابن له ويكون بمثابة الوريث الشرعي للمملكة ، وبناء عليه اجتمعوا للتداول حول ترتيب زواج مهيب لحاكمهم الذي لم يكن لديه اولاد حتى الآن ، وبعد تقليب للأمر وتبادل معق للأفكار تم التوفيق بين الآراء المختلفة ، واتفق بالاجماع أن يتم التشاور مع امبراطور القسطنطينية حول هذه المسألة ، وكان يوجد في قصره الكثير من العذارى النبيلات اللواتي كن قريبات له بروابط الدم ، زد على هذا أنه كان بإمكانه - لكونه الملك الأقوى والأغنى في العالم - أن يخفف من فيضه وغناه المحنة التي كانت مملكتنا تكابد من وطأتها ، وأن يغير فقرنا الى غنى ، ولذلك ، جرى ارسال المبعوثين بموافقة عامة لينفذوا هذه الخطة بعون الرب ، واختير لهذه المهمة كل من اتارد رئيس أساقفة الناصرة وهمفري أوف تيرون كافل المملكة . وتقدما الى الساحل بعدما أعدا عدتهما في تلك الأثناء وركبا متن إحدى السفن هناك (١٢٨)

١٧- الملك يحث الخطا نحو أنطاكية بمرافقة
كونت فلاندرز وسائر قوات المملكة ، نور الدين يصاب
بمرض خطير .

كان الرأي المجمع عليه أن وصول أمير عظيم كهذا مع جنود شجعان ونبلاء كثيرين في موكبه يجب الا يكون بلا ثمار وبدون نتيجة . ولذلك تقرر بموافقة جماعية وبوحي من الرحمة السماوية أن يتقدموا الى منطقة أنطاكية مع القوات المحاربة المتحدة ، ونقل هذا العزم الى أمير تلك المنطقة ، والى كونت طرابلس ، ودعي الاثنان بمودة ليجهزا قواتهما في يوم محدد لغزو منطقة العدو ، وبناء عليه اجتمع بتأييد من السماء ، جميع المسيحيين من المناطق المختلفة في مكان يعرف باسم بسوقة في بلاد طرابلس ، وزحفوا بتشكيل المعركة من هناك الى المنطقة

المعادية ، الا أن النجاح لم يلزمهم في أول الأمر ، فقد شن هجوم ضروس على واحد من حصون العدو المعروفة باسم قلعة الروح الا أنه لم يثمر شيئا ، « لكن الحظ الأفضل يأتي بعند البداية التعيسة » (١٢٩) وهكذا ، تقدم الأمراء المجتمعون ، تلبية لاقتراح أرناط أمير أنطاكية وتوسلاته نحو منطقة أنطاكية في ظل بشائر خير أكثر إيجابية .

وبينما كان الملك والنبلاء متريثين هناك لرسم الخطة الأكثر إحكاما في ظل تلك المعطيات ، وصل رسول يحمل أكثر الأخبار استساغة ، وأكثر صحة وهو أن نور الدين ، أقوى أعدائنا ، الذي كان قد خيم مع جيش ضخم بالقرب من قلعة إنب ، قد توفي أو كان متمددا وهو مصاب بمرض عضال وبشكل ميؤوس منه ، وكبرهان على صحة ما ذكره روى الرسول أنه كان قد شهد في اليوم السابق اضطرابا كبيرا في معسكر نور الدين ، ويبدو أنه تم إهمال عبيده له وتخلى عنه أكثر العناصر ثقة في حاشيته ، وأهملت جميع ممتلكاته الخاصة بدون تمييز ، وياتت عرضة للنهب من قبل أي شخص شاء ، وعلاوة على ذلك ، ذكر أن الجنود الباكين والناحين بحزن عميق قد تفرقوا هنا وهناك باضطراب كبير وفوضى شديدة (١٤٠)؛ وتأكدت صحة الرواية التي نقلها الرسول ، فقد كان نور الدين قد أصيب بداء خطير جدا ، وأصبحت صفوفه غير منتظمة وكما هي العادة بينهم عندما يموت حاكمهم كان العنف اللامحدود وأعمال النهب منتشرة في جيشه وكان رجال نور الدين المخلصون قد نقلوه على حمالة الى مدينة حلب بعدما أصبح عاجزا عن التحرك جسديا وضعيفا تماما .

أدرك المسيحيون لدى تلقيهم هذه الأخبار عن أحوال العدو أن جميع الأشياء كانت تتفاعل مع بعضها بعضا لتحقيق نجاح مشروعهم ، ولذلك جرى ارسال الرسل بموافقة جماعية الى طوروس ، وهو أمير أرمني قوي جدا ، وبعثوا اليه دعوة ودية للغاية في أن يتلطف بالانضمام اليهم في مشروع وعدوه أنه سيكون

مثمرا جدا ، وصدرت التعليمات الى الرسل في أن يستخدموا كل وسيلة ممكنة لاقتناعه في أن يتخلى عن جميع المعانير وأن ينضم الى القوات المتحالفة في انطاكية بنجدات قوية ، وتلقى طوروس الرسالة بسرور ، وبما أنه كان رجلا صاحب شخصية نشطة متأهية للعمل ، فقد جمع على الفور جيشا ضخما ، وزحف بسرعة قصوى نحو أنطاكية ، ورحب به المسيحيون بابتهاج وقيدت القوات على الفور من المدينة وتوجه الزحف نحو شيزر .

١٨ - حصار شيزر والاستيلاء عليها خلال وقت

قصير .

تقع مدينة شيزر على نهر العاصي نفسه الذي يجري بمحاذاة انطاكية ، ويدعوها بعضهم باسم قيسارية ويعتقد من خلالهم أنها حاضرة كيبانوكية المشهورة التي رأسها في إحدى المرات المعلم البارز القديس باسيل ، الا أن الذين يؤمنون بهذا الرأي يقتشفون خطأ كبيرا ، لأن قيسارية تلك تبعد مسافة مسيرة خمسة عشر يوما أو أكثر عن انطاكية ، وتقع هذه المدينة في سورية الجوفة وهو إقليم يقع بينه وبين كيبانوكية أقاليم كثيرة ، كما أن الاسم ليس قيسارية ؛ بل هو قيصرية وشيزر هي إحدى المدن الاسقفية التابعة لبطيركية أنطاكية ، وهي واقعة بشكل موائم جدا ، ويمتد الجزء السفلي منها على طول السهل ، بينما تقع القلعة على الجزء العلوي ، وهي قلعة طويلة بعض الشيء في امتدادها الا انها ضيقة نوعا ما ، وهي محصنة بشكل جيد ، فبالاضافة الى دفاعاتها الطبيعية ، فإن النهر يحميها من جانب واحد وتحميها المدينة من جانب آخر بحيث يتعذر بلوغها على الاطلاق .

تقدم المسيحيون بصفوف حسب قواعد النظام العسكري ، وقام القادة فور وصولهم الى المدينة بتوزيع جنودهم بالنظام الأمثل

وحاصروا المدينة ، ودفع الخوف من العدو سكان المدينة الى التراجع الى داخل الاسوار حالما بدأ الحصار ، ونصب الملك والمخيمون في الخارج الاتهم الحربية وآلات قذف القذائف على الفور ، ولم يتراخوا في جهودهم ولو لدقيقة واحدة ، بل حاولوا أن يلحقوا بعدوهم كل ضرر ممكن حتى يمكن إنهاك قوة المدافعين بشدة ومشقة متواصلة ، وأجهد كل قائد نفسه بشجاعة في القطاع الخاص الذي كان قد عين فيه منذ البداية ، ورفع معنويات جنوده بالأقوال التشجيعية والوعود بالمكافآت لبذل المزيد من الجهود القوية ، ورغب كل واحد منهم أن يكون أول من يقتحم المدينة ، وسعى ليحقق لنفسه الفخار بكونه أول من يدخل المدينة ، وأحدثوا بها لهذا السبب دمارا نريعا الى حد أن الموت بدأ يهدد سكان المدينة من جميع الاتجاهات .

لم يكن لدى سكان شيزر سوى معرفة بسيطة باستخدام الأسلحة ، وكان اهتمامهم موقفا على التجارة الى أبعد الحدود ، وعلاوة على ذلك ، وبما أنهم كانوا جاهلين تماما بالمحنة التي كانت قد حدثت مؤخرا ، فانهم لم يخشوا أدنى خشية من الحصار ، وكانوا يتقنون بدفاعات مدينتهم وبقوة حاكمهم الذي كان بصحة جيدة حسبما كانوا يعتقدون ، حيث أنهم لم يتمكنوا من تحمل أعباء من هذا النوع ، ولم يستطيعوا مواصلة الصمود تحت وطأة الهجمات والمناوشات المتواصلة ، فقد استسلموا بعد بضعة ايام تحت الضغط المستمر لهاجمهم واقتحم المسيحيون التحصينات واندفعوا الى وسط المدينة واستولوا عليها بالقوة ، فترجع الناس الى القلعة وتخلوا عن كل ما كان قد بقي في المدينة السفلية ، وجرى التخلي عن كل شيء بدون استثناء للعدو ليقوم بسلبه ، وهكذا ، استخدم المسيحيون حسب هواهم منازل الناس بكل ما كانت تشتمل عليه انما لعدة ايام فقط .

وتفجر سبب تافه للخلاف بين قائدتنا لكنه كان مزعجا للغاية ، وحدث هذا في الوقت الذي بدأ فيه من المؤكد تماما أنه يمكن

الاستيلاء على القلعة بسهولة وذلك تحت الضغط المستمر وبالتالي القاء القبض على جميع الذين كانوا قد هربوا الى هناك طلبا للملجأ ، وكان الملك مهتما بمستقبل تقدم البلاد ، وبما أنه كان عارفا أن كونت فلاندرز سيتمكن مع قوته الكبيرة من الفرسان والوسائل الكثيرة التي بحوزته من حماية المدينة تماما ضد قوى الأتراك ومكائدهم فقد خصص شيزر له منذ البداية ، وبما أنه كان يفكر بهذا الأمر ، فقد شن هجوما عنيفا على القلعة حتى يتمكن من وضع المدينة والقلعة تحت حماية الكونت ويحتفظ بهما كملكية وراثية الى الأبد ، وبدا هذا الترتيب لجميع القادة أنه ترتيب مناسب تماما ووافقوا بالاجماع عليه .

بيد أن الأمير أرنات وحده أثار المصاعب ، وأعلن أن شيزر كانت قد شكلت منذ ا ع توابعها جزءا من ميراث امير انطاكية، ولهذا السبب على حد من يملكها أن يقسم يمين الولاء له ويعتبره سيده له ، ومع أن الكونت ثيري كان على استعداد لتقديم الولاء للملك في سبيل تملك شيزر فقد رفض بشكل قاطع أن يؤدي يمين الولاء لأمير انطاكية سواء أكان أرنات الذي كان يدير الامارة حاليا ، أو بوهموند الشاب ، الذي كان يؤمل أنه سيتسلم السلطة حالا ، وقال إنه لن يقدم الولاء الا للملوك (١٤١)

وهكذا ، وعقابا على ذنوبنا ، نشب خلاف بين القادة حول هذه المسألة ، وتم التخلي عن المشروع الذي كان هاما جدا والذي كان في قبضتهم تقريبا ، وعاد المسيحيون الى انطاكية مع فيالقهم وهم محملون بالمغانم والأسلاب الى درجة الاشباع التام .

١٩- أخو نور الدين يتحرك ضدنا . موت فولتشر بطريك القدس . عودة حصن كهف (وادي الراحوب) الواقع وراء الأردن الينا . الملك يحاصر قلعة حارم الواقعة في منطقة انطاكية ويستولي عليها .

في هذه الآونة قدم ميرميران أخو نور الدين الى حلب ، بعدما علم بالكارثة التي حلت بأخيه ، واعتقد أنه كان قد توفي ، وسلم له السكان المدينة على الفور بدون إثارة أية متاعب ، وبينما كان يهاجم القلعة بقوة ليجبرها على الاستسلام ايضا ، سمع أن أخاه مايزال على قيد الحياة ، ولذلك فرق عساكره على الفور ورحل (١٤٢)

وتوفي في هذا الوقت نفسه ايضا فولتشر البطريرك اللاتيني الثامن للقدس ، وكان رجلا متدينا ويخشى الرب ، وحدث هذا في العام الثاني عشر من توليه لمنصب بطريركيته ، وفي اليوم الثاني عشر قبل بداية شهر كانون الأول (١٤٣)

وفي هذه الآونة استرد المسيحيون أيضا معقلا على الناحية الأخرى من الأردن في منطقة جلعاد ، وكان هذا في الواقع ، على شكل كهف ، جيد التحصين ، (قد تم الاستيلاء عليه خداعا من قبل الأعداء قبل بضعة أعوام بسبب اهمال قواتنا ، وكانت استعادته قد تمت والى حد كبير بفضل الجهود الحماسية للملكة ميليساند وبمساعدة العمل الفعال للذين تركوا في الملكة ولاسيما رعاية بلدوين دي ليلي الذي كان الملك قد عهد اليه بالمسؤولية عن الملكة أثناء غيابه) وأرسلت أخبار هذا النجاح الى الملك فجلبت سرورا كبيرا للجيش بأكمله ، وكانت مصدر سعادة كبيرة للجميع .

وفي تلك الأثناء كان القادة مايزالون مقيمين في انطاكية وبما أنهم رفضوا الاستمرار في حالة الخلاف التي كانوا عليها أمام شيزر

فقد توصلوا الآن بنعمة الرب الى وحدة في الروح والهدف ، ولهذا صمموا بالروابط السلمية التي قامت بينهم أن يتولوا القيام من جديد بعمل بارز . ويكون جديرا بالتذكر الى الأبد ، وتقرر بموافقة الجميع ومساعدتهم ضرب الحصار على (حارم) وهي إحدى القلاع الواقعة على بعد / اثني عشرة ميلا / من أنطاكية ، حيث باشر هذا الموقع نفوذا كبيرا وسلطانا على القرى التي تدعى قرى الجزر وكان مصدر ازعاج كبير للمدينة نفسها ، وبناء عليه ذهب الجيش بأسره بتصميم واحد وخيم أمام المدينة وذلك في يوم ميلاد الرب .

وفي الوقت نفسه كان المرض ، الذي هاجم نور الدين ، ما يزال مسيطرا عليه ، وكان قد تم استدعاء امهر الاطباء من سائر انحاء الشرق ، الا ان مرضه رفض الاستجابة الى العلاجات التي استخدموها واصبحت حياته ميؤوسا منها الآن ، وبدا هذا الأمر بالنسبة للمسيحيين بأنه مؤشر ايجابي على أن العناية السماوية تساعدهم في مشروعهم ، فلو كان نور الدين مستمتعا بصحته وقوته المؤلفتين لصعب على جيشنا أن يتصرف بحرية زائدة في الأقاليم التي كانت خاضعة له .

وحول الملك وأولئك الذي رافقوه في هذه الحملة الفرصة لمصلحتهم ، ودفعتهم المعرفة الأكيدة ان هذا المحارب العظيم لم يكن قادرا على المشاركة في أموره الخاصة ، وهذا ما شجعهم للسعي وراء هدفهم بحماسة كبيرة ، والى تشديد الحصار باتقاد زائد ، وهكذا ، فقد حاصروا القلعة من جميع الجهات ونصبوا الاتهم الحربية وأعدوا جميع الأدوات التي تستخدم عادة في حصار القلاع .

كانت القلعة ، التي نحن بصدها ، تقع على هضبة منخفضة مثلت مظهر متراس مبني هناك بشكل اصطناعي كأساس للبناء . ولهذا أوقف الرجال الأكثر بربة في الجيش أنفسهم على

انشاء ممرات سرية من مواد مناسبة بحيث يتمكن الجنود ، الذين
توجب عليهم أن ينسفوا السد ، من الاختباء بشكل آمن . وبدأ
لهم - وكانوا مصيبيين في ذلك - أنه اذا تم لغم القلعة بممرات سرية
لا بد من أن ينهار جزء من الأبنية المقامة فوقها ، فأعدت بسرعة
ستائر الصفصاف المجدولة والسلالم ذات الطول المعتدل وجميع
المعدات الأخرى التي قد تكون ذات فائدة في عمل كهذا ، وعندما كان
كل شيء قد جهز بالعناية المثلى صدرت الأوامر بصوت المنادي الى
زعماء كتائب المشاة والفرسان وبأوامر سرية لينكبوا على الفور
وباجتهاد على عمل الهجوم ، وخصص مكان محدد لكل زعيم
وواصل العمل مع أصدقائه وأتباعه بضراوة وكان نجاح المسألة
بأسرها كان يعتمد عليه نفسه فقط ، وكان كل قائد تواقا ليثبت أن
أتباعه كانوا الأفضل ، وهكذا واصلوا بهجمات مستمرة وبمناوشات
يومية العمل بإصرار بالغ بحيث أن المشروع ، الذي كان يستغرق
بالشكل العادي أياما كثيرة ، أنجز في غضون شهرين بفضل
الاهتمام واليقظة .

وحدث ذات يوم أن سقط حجر كبير مقنوف من إحدى آلات
القذف الحربية ، التي كانت تقصف ليل نهار ، على القائد العام
للقلعة الذي ارتكز عليه الدفاع بأكمله ، فسحق على الفور وتحول
الى أشلاء وتفرق الناس عند موته كالغنم عندما يصرع
الراعي ، وكالرمل بلا كلس فهو لا يستطيع أن يتماسك مع
بعضه ، وهكذا ، توقفت المقاومة العنيدة التي كانوا قد أظهروها
حتى الآن .

وحالما أدرك المسيحيون هذا ضاعفوا جهودهم وبالمقابل
تناقصت مقاومة المحاصرين بالقدر نفسه ، وأرسلوا في
الحال - لابل في الحقيقة بعد بضعة أيام - وفدا الى
الملك ، وعرضوا عليه تسليم الموقع له شرط أن يسمح لهم بالذهاب
الى موطنهم بحرية وأمان مع جميع ممتلكاتهم ، وطلبوا تزويدهم

بالمرشدين ليحموهم من التعرض للهجوم وليقودوهم الى هدفهم
المنشود بأمان .

وهكذا تم الاستيلاء على القلعة ، وسلمت الى أمير
انطاكية ، حيث كانت تقع تحت سلطته من قبل ، وعاد القادة الى
انطاكية بعدما أنجزوا حملة ناجحة ، وهناك فارقهم الملك بعدما
تبودلت كلمات الوداع ، وعاد الى الملكة بمرافقة كونت فلاندرز
الرائع ، ورافقهم كونت طرابلس بلطف على الطريق حتى
طرابلس (١٤٤)

٢- اختيار أمالك رئيس الشمامسة السالف في
كنيسة القبر المقدس في القدس ، بطيركا . انتخابه
بسبب نشوب نزاع بين الأساقفة .

كانت كنيسة القدس في هذه الآونة بلا بطيرك بسبب وفاة
فولتشر ذي الذكرى العزيزة ، ولذلك اجتمع رجالات الكنيسة في
المدينة المقدسة لمعالجة مسألة اختيار رجل لشغل هذا الكرسي الهام
حسب القواعد الكنسية ، وقد ادعى ان الاختيار أجرى بشكل غير
نظامي بسبب تدخل أخت للملكة ميليساندا وسيبيلياكونتس فلاندرز
أخت الملك ، وانتخبت أمالك مقدم رهبان كنيسة قبر المسيح (١٤٥) .

كان أمالك فرنجي المولد من مدينة نسلة الواقعة في أسقفية
نيون ، وكان رجلا عالي الثقافة لكنه كان سانجا للغاية وقليل
الفائدة للكنيسة ، وقد جرى اختباره لهذا المنصب خلافا لرغبات
هيرونسيوس رئيس أساقفة قيسارية ورغبات رالف أسقف بيت لحم
الذي طالب بالعدول عن قرار تعيينه ، وعندما اعتلى أمالك عرش
البطيركية وضع المسألة في أيدي فريدرك أسقف عكا الذي ذهب الى
الكنيسة الرومانية التي كان يحكمها آنذاك هادريان ، ويقال ان
فريدرك ضمن لأمالك باستخدامه السخي للهبات ، وبغياب

خصومة ، تأييد بابا الرومان ، وجلب معه طيلاسان الحبرية مع اعتراف تام بدعوى أمالك بمنصب البطريرك .

٢١- نور الدين يحاصر كهفا في منطقة السواد تعود ملكيته للمسيحيين . الملك يزحف ضده وينجح في رفع الحصار . نور الدين يتحارب مع المسيحيين ويصاب بالهزيمة .

كان في هذه الأثناء نور الدين قد شفي من المرض الذي أصابه وذلك بفضل المعالجة الدقيقة التي تلقاها من أطبائه ، وكان الملك قد عاد الآن الى مملكته ، وذهب الأمير التركي الى دمشق بنشاط صحي تام ، ولكي لايمضي الوقت بلا عمل وحتى لايتهم بالتراخي في يقظته المألوفة ، استدعى جيشه خلال الصيف التالي ، وجمع قوة ضخمة من الاحتياطيات وشن هجوما مفاجئا على إحدى قلاعنا ، وكانت هذه القلعة تتألف من كهف في المنطقة التي تدعى السواد وهي واقعة على جانب هضبة مرتفعة ومنحدرة جدا ، ولم يكن هنالك اي طريق لبلوغ هذه القلعة من الأعلى او الأسفل ، الا من الجانب بواسطة ممر ضيق وخطر على طول جرف ، وكانت في داخله غرف ومعدات نوم قدمت التجهيزات اللازمة للقائمين هناك ، وكان هنالك ايضا ينبوع مياهه موائمة للحياة لم تتلوث ، ويقدر ماسمحت الرقعة المحدودة الضيقة للموقع فانه كان مجهزة بشكل جيد واعتبر مفيدا جدا للمنطقة .

وعلم الملك بنبا هذا الحصار بواسطة رواية موثوقة ، فجمع قوات المملكة على الفور ، واسرع الى هناك بمرافقة كونت فلاندرز ، وكان الناس الموجودون في داخل الكهف غير القادرين على تحمل قساوة الصراع قد أعدوا شروطا مؤقتة للاستسلام حسبما تفرض ذلك الضرورة عادة ، اي انهم سيسلمون التحصينات اذا لم

تصلهم المساعدة خلال عشرة ايام ، وعلم الملك بهذه الحقيقة ايضا ، ولذلك بذل اقصى مايمكنه للاسراع لنجدتهم ، وخيم مع جيشه بالقرب من طبرية بجانب الجسر حيث تنفصل أمواج نهر الأردن عن أمواج بحيرة طبرية .

لكن حالما علم نور الدين ان الملك كان قريبا تخلى عن الحصار وزحف مع جيشه الى الامام نحو المسيحيين وذلك بناء على نصيحة شيركوه القائد العام لجيشه الذي كان رجلا شجاعا جدا ووثقا تمام الثقة من نفسه .

وبعدما علم الملك ان نور الدين قد عقد العزم على مهاجمته استدعى نبلاءه الى قصره في وقت مبكر من الفجر وقدم في اول الامر التمسح وقير المتسحح واضع لصلب الصليبوت المانح للحياة الذي كان يحمله سلفنا بطرس نو الذكرى العزيزة كرئيس لاساقفة مدينة صور ، ثم أعلن عن خوض القتال بموافقة جماعية ، وحركت الصفوف وتقدمت بابتهاج روحي وكأنها متيقنة من النصر ، وسارت إلى الامام إلى الموقع الذي قيل إن جيوش نور الدين كانت موجودة فيه ، وعندما اقتربت كتائب المسيحيين حسب أمنيتها من العدو ، بترتيب المعركة وهي مدججة بالسلاح انقضت على الأتراك واستخدمت سيوفها استخداما عنيفا وكأنها مصممة أن تقاتل حتى الموت ، إلا أن الأتراك الجسورين تحملوا الهجوم دون اضطراب ، وشنوا هبوما معاكسا بالسيوف ، وحاولوا بمقاومة شجاعة أن يصدوا هجوم أعدائهم .

وفي النهاية منحت السماء النصر إلى المسيحيين بعد تيارات متقلبة للقدر ، فهزم العدو هزيمة ساحقة بعدما أصيب بخسائر جسيمة واحتل الملك مع جيشه الميدان كمنتصر ، حدثت المعركة في فيق في الأسبوع الثاني من شهر تموز من العام الخامس عشر لحكم الملك بلووين (١٤٦).

ورأى بلدوين من ثم أنه من الموائم أن يزحف بجيشه إلى القلعة التي كانت واقعة تحت الحصار ، وأصلح هناك الضرر الذي كان قد أصابها وزودها بعناية بالأسلحة والطعام والجنود الشجعان ، ثم أذن لعناصر جيشه وصرفهم إلى منازلهم وعاد إلى المملكة بعد حملة ناجحة .

٢٢ - عودة الرسل الذين أرسلوا إلى القسطنطينية بخصوص مسألة زواج الملك . جلبهم معهم ابنة الامبراطور كزوجة للملك .

كان كما ذكرنا من قبل مبعوثون قد ذهبوا إلى القسطنطينية لترتيب زواج الملك ، وقد مات هناك واحد منهم يدعى أتارد وكان رئيسا لأساقفة الناصرة ، وجلبت جثته إلى الكنيسة التي كان يعمل بها بفضل عناية وغيره رفاقه المخلصين ، وقد خلفه ليتارد رئيس شماسة الكنيسة ذاتها ، وكان رجلا لطيفا جدا ودمثا وأنيسا ولا يزال باقيا في المسؤولية ذاتها للعام الثالث والعشرين من منصبه (١٤٧) ، وكان المبعوثون الباقون على قيد الحياة هم همفري كافل الملكة وجوسلين بيسلوس ووليم دي بريس وكانوا رجالا نبلاء وبارزين ومتمكنين تماما من الأمور المدنية ، وقد تابعوا باجتهاد موائم المهمة الموكولة إليهم في مقر الامبراطور ، ونفذ مطالبهم بعد تسويات لا تحصى ، وإجابات ملتبسة قدمت بإسهاب مربك وفق الأسلوب الذي يتصف به الأغريق المكررة ، ويستخدمونه بالعادة ، وبعد أن أنهت الترتيبات بخصوص المهر وهبة الزفاف جرى تعيين فتاة لامعة لتكون زوجة للملك ، وكانت أميرة تربت في أكثر الأمكنة انعزالا في القصر الامبراطوري ، وكانت في الواقع ابنة اخي الامبراطور ابنة أخيه الأكبر اسحاق ، وكانت تدعى ثيوبورا وكانت عنراء في الثالثة عشر من عمرها ذات جمال فريد من نوعه بالشكل والملامح على حد سواء ، كان مظهرها الكامل يؤثر على كل من

راها ، وتكون مهرها من مائة ألف قطعة نقدية ذات قيمة ثابتة وذلك بالاضافة إلى عشرة آلاف من العملة ذاتها التي قدمها الامبراطور بسخاء لنفقات الزفاف ، ويمكن تقدير تكاليف جهاز الزفاف للفتاة المؤلف من الذهب والمجوهرات والأثواب واللآلئ والزرابي والبسط والأنسجة الحريرية وكذلك الأواني الثمينة ، بما تعادل قيمته أربعة عشر ألف قطعة نقدية إضافية (١٤٨)

كان الملك قد أرسل ضمانا إلى الامبراطور مكتوبة بخط يده وهي أنه سيصدق بنفسه على أي شيء يوافق عليه مبعوثوه بالنيابة عنه ، ووعدوا بصدق أن الملكة ستحتفظ في حال وفاة الملك بمدينة عكا مع جميع توابعها بمثابة حصة زواج ملكية مدى الحياة بكل الهدوء وبدون نزاع ، وهكذا سويت المسألة بحلول سارة لكلا الطرفين ، وانتخب مرافقو العروس من أرفع نبلاء الامبراطورية لمرافقة السيدة في رحلتها إلى الملك ، وانطلقت في رحلتها إلى سورية في ظل رعاية المبعوثين لتذهب إلى زوجها .

ونزلت خلال شهر أيلول التالي مع جميع حاشيتها بأمان في مدينة صور ، ورسمت خلال بضعة أيام تلت ذلك في القدس حسبما اقتضت عادة الملكة ، وتوجت بالتاج الملكي ، ثم قدمت لزوجها بعد انتهاء الطقوس المهيبة للزواج ، ولم يتلق بطريرك القدس المنتخب هبة التكريس في ذلك اليوم لأن المبعوثين ، الذين أرسلوا إلى البابا من أجل قضيته ، لم يكونوا قد عادوا الآن ، ولذلك جرى استدعاء إيمري بطريرك أنطاكية بأمر ملكي ليمنح نعمة المسيح الملكية للملكة ولإقامة طقوس الزواج المألوفة (١٤٩) ، وتخلى الملك منذ أن تزوج عن كل الطيش الذي كان - حسب الشائعة - قد أظهره بأفراط حتى الآن ، ويمكن من ذلك الحين فصاعدا أن يردد مع الحواري: « لما كنت طفلا كطفل كنت اتكلم وكطفل كنت افطن وكطفل كنت افكر لكن لما صرت رجلا ابطلت ما للطفل (١٥٠) . ويقال انه تعلق دائما بزوجته بحب جدير بالثناء ، ويعتقد انه كان مخلصا حتى النهاية ، وبدأ يت

بأعمال هامة ويشغل نفسه تماما بأمور جادة بعدما تخلى عن السلوك الطائش وكأنه قد تبدل ولم يعد ذلك الرجل السابق (١٥١)

٢٣ - قدوم امبراطور القسطنطينية الى انطاكية - الامير أرناط يعتذر عن الآثام التي اقترفها في قبرص فيحظى بالقبول

في غضون ذلك العام نفسه عزم امبراطور القسطنطينية على النزول إلى سورية ، وجند جنودا من جميع أقاليم مملكته ، بشكل يتمشى مع عظمته الامبراطورية ، وعبر بجيشه الضخم ، المجموع من جميع القبائل والشعوب والأمم ، البوسفور ومر بسرعة خلال جميع المناطق الفاصلة وظهر في حوالي بداية شهر كانون الأول في كليكية على رأس جيوشه وبشكل مفاجيء للغاية لدرجة بدا فيها أن الأمر لم يكن معقولا ، وكان السبب المباشر لمسيرته المسرعة على النحو التالي : كان هنالك أمير أرمني يدعى طوروس - كنا قد ذكرناه من قبل - قد استولى بالقوة على سائر منطقة كليكية المتاخمة للجبال التي كان يملك فيها عدة قلاع حصينة جدا ، ولم تنج منه أية قلعة مسورة أو قرية بعيدة ، وكانت كل من عين زربة وطرسوس عاصمتي كليكية الأولى والثانية قد وقعتا كل على حده تحت سلطته بالاضافة إلى مدن أخرى أيضا بينها المصيصة وأذنه وسيس حيث كان قد طرد الولاة المعينين هناك لإدارة المصالح الامبراطورية ، ولذلك ، كان الامبراطور قد أسرع في سيره وأخفى غايته لكي يباغت الامير الأرمني .

وكان لرحلته هدف آخر أيضا ، فقد كانت عاطفته قد أثارتها القضية المحزنة للقبارصة الذين يستحقون تأييده تماما والذين كانوا - كما ذكرنا من قبل - قد خضعوا للطغيان الوحشي لأمير انطاكية الذي عاملهم وكأنهم اعداء للعقيدة وقتله مجرمون .

لقد كان قدوم الجيوش الامبراطورية مفاجئا للغاية بحيث لم يتسن لطوروس ، الذي كان مقيما في طرسوس ، الوقت الكافي للهروب إلى الجبال المجاورة أمام الفيالق وقادة الجيش الذين كانوا ينتشرون فوق السهل المكشوف .

عندما سمع أرناط أمير أنطاكية بهذه الأخبار أنه ضميره تأنيبا عظيما وندم على ما اقترفه من أثم ، وكان قد قام قبل وصول الامبراطور بصب جام غضبه على القبارصة الأبرياء وارتكب بحقهم وحق زوجاتهم وأطفالهم إساءات بغيضة بنظر الله والانسان ، ولذلك فقد خاف من وصول الامبراطور(١٥٢)خشية من أن يتولى القيام بالنار لمظالم شعب مهان بعدما حركته قضيتهم العادلة ، وبدأ الأمير يفكر مباشرة تارة بعقله وتارة أخرى بالتداول مع أصدقاء حميمين استدعاهم بخصوص منحى العمل الذي يمكن أن يتخذه وكيف يمكنه التكفير عن ذنبه وإرضاء العظمة الامبراطورية عن إساءة عميقة جدا كهذه ، ويقال إن وصول الامبراطور أربعه غاية الرعب حتى أنه لم ينتظر وصول ملك القدس ، الذي كان على وشك الوصول مع أنه يعرف أنه سيتمكن من خلال وساطة ملك القدس ونفوذه ، الذي ازداد بالزواج الذي تم من ابنة أخي الامبراطور مؤخرا أن يضمن علاقات لنفسه أفضل بكثير .

ولذلك قام بناء على نصيحة بعض أعوانه باختيار بعض النبلاء منهم مرافقته ، وتوجه إلى كليكية ، حيث كان الامبراطور موجودا مع قواته في ذلك الوقت ، ورافقه في هذه الرحلة أيضا جيرارد ، الأسقف المبجل للأنقية ، وتقدم ، بعدما حقق في أول الأمر تأييد بعض عناصر بلاط الامبراطور للتوسط لالتماسه ، إلى مدينة المصيصة حيث استرد رضا وحظوة صاحب الجلالة الامبراطور بعدما قدم تعليقات محكمة كثيرة كانت مشحونة بالخزي والعار للمسيحيين ، ويروى أنه مثل على مشهد من جميع القوات المحتشدة أمام الامبراطور وهو حافي القدمين يرتدي سترة قصيرة حتى المرفق

مع حبل حول عنقه وبيده سيف مسلول أمسكه من رأسه وقدم قبضته إلى الامبراطور ، وبعدما سلم سيفه ألقى بنفسه على الأرض عند قدمي الامبراطور حيث بقي ممددا على الأرض حتى اشمأز الجميع ، وتحول مجد اللاتينيين إلى خزي ، كان رجلا مقدما بشكل غير طبيعي على اقرار الآثام والتوبة على حد سواء (١٥٣)

٢٤ - الملك يسرع إلى منطقة أنطاكية ، ويستقبل من قبل الامبراطور بالترحاب ويخلع عليه الخلع والعطايا .

عندما علم الملك بوصول الامبراطور توجه نحو أنطاكية بمرافقة اخيه وتحيط به حاشية منتخبة من أعظم نبلاء المملكة ، وكان كونت فلاندرز قد صمم على العودة إلى الوطن بالرحلة البحرية القادمة ولذلك تخلف ولم يحضر معه .

أرسل الملك لدى وصوله سفارة إلى الامبراطور كانت مؤلفة من غودفري مقدم الداوية ، وكان رجلا متمكنا تماما من اللغة الاغريقية والنبيل جوسلين بزللوس . وتوجب عليهما أن ينقلا بطريقة لبقة التحيات اللائقة بجلالته الامبراطورية ، وأن يستفسرا عما إذا كان يسره أن يمثل الملك أمام حضرته ، وصدرت الأوامر للرسول ردا على رسالتهم بدعوة الملك بإلحاح بالغ للقدوم على الفور ، أضف إلى هذا أنه أرسل أن لا يؤجل القدوم إليه لأنه يعتبر ابن الامبراطورية المحبوب .

وبناء عليه ذهب الملك إلى هناك في اليوم المحدد مع حاشية منتخبة من النبلاء البارزين جدا ، واستقبل بطريقة مشرفة للغاية ، وتنفيذا لأمر الامبراطور ، استقبله نبيلان من المرتبة العليا بين الرجال البارزين في القصر المقدس وهما يوحنا المسؤول عن المراسم

والكسيوس الحاجب ، وهما شقيقان لأم واحدة وابنا أخوة
للإمبراطور نفسه ، ورافقتهما حاشية رائعة من النبلاء ، وتوجه
الملك بقيادة هذه الحاشية إلى مدخل السرادق الذي كان يقيم فيه
الإمبراطور مؤقتا مع معظم نبلائه البارزين .

قدم الملك باحتفاء كبير ، وحياء الإمبراطور بلطف وقبله قبلة
السلام- وأجلسه إلى جانبه على مقعد الشرف مع أنه كان في موقع
أخفض من مقعده ، ثم جرى الترحاب برفاق الملك بتحيات لائقة ،
ومنحهم قبلة السلام أيضا ، ثم استفسر باهتمام عن صحة الملك
وعن صحة أعضاء أركان حاشيته ، ودل التعبير المدهش لسيمائه
وأقواله وموقفه العام أيضا أنه كان مسرورا للغاية بقدمهم ومبتهج
لحضور ملك لامع من هذا القبيل مع حاشيته ، ولإزم بلدوين
الإمبراطور وبقي معه لمدة عشرة أيام بدون انقطاع ، واستمتع منه
بمحادثة سارة ، وأجريا أحاديث متكررة كل على حدة وبحضور
النبلاء أحيانا ، كان الملك ودودا ودمثا جدا ، وحقق أثناء إقامته
حظوة كبيرة لدى الإمبراطور ولدى نبلائه الذين ارتبطت قلوبهم به
بروابط الحب العميق ، وتعلقوا به بالفعل بعد ذلك طالما بقي حيا
معتبرين إياه ابنهم المفضل ، ولم يتوقفوا حتى يومنا هذا - مع أنه
متوفى - عن تذكره بشكل عزيز ورائع .

كان بلدوين رجلا نشيطا صاحب بصيرة ثابتة بخصوص الأمور
الدنيوية ، فقد رغب في أن تثمر إقامته مع الإمبراطور فوائد جمة ،
وقد لاحظ أن الإمبراطور كان قد أمر بحشد القوات في معسكر خارج
المدينة لإرسالها في حملة ضد طوروس الذي كان يطارده بكراهية
شديدة ، وبدأ بلدوين ، بعد أن طلب الانن ، يحاول القيام بإحداث
تفاهم طيب بين الإمبراطور وذلك النبيل ، واستدعى إليه طوروس
ورتب اتفاقا سلم بموجبه هذا الأمير القلعة التي كان الإمبراطور
يطالب بها ، وأعيد بعد ذلك إلى رعاية تامة ، وهكذا ، أدى طوروس
يعين الولاء إلى الإمبراطور عن طريق وساطة الملك ، ثم عاد إلى
ممتلكاته (١٥٤)

وعلمنا من بعض الأشخاص الذين تعد شهادتهم موثوقة تماما انه بالاضافة إلى الهبات التي أهدقت على أتباع الملك بسخاء كبير - قيل إن هذه الهبات كانت لا تحصى - كانت الثروات التي منحت للملك وحده قد بلغت اثنين وعشرين ألف قطعة ذهبية وثلاثة آلاف قطعة فضية ذات وزن قياسي ، وشكلت الأثواب والأنسجة الحريرية والأباريق النفيسة جزءا من الثروة الممنوحة أيضا (١٥٥)

وجد الملك في أنطاكية أخاه عموري كونت يافا وعسقلان ، وكان معه هيودي ابلين الذي كان قد تحرر من أسر العدو مؤخرا ، وكان قد عاد ليعيد تنصيب نفسه في منصبه السابق ، وبما أنهما رغبا بزيارة الامبراطور ، فقد انطلقا حالا إلى هناك ، وقدم لهما هبات سخية في نهاية زيارتهما وأعادهما مسرورين إلى الملكة .

٢٥ - دخول الامبراطور إلى أنطاكية . إظهاره سخاء كبير نحو السكان . عودته من هناك على الفور إلى بلده .

احتفل الامبراطور بعيد الفصح المقدس في كليكية وأمضى عدة أيام في تلك المنطقة ، ثم قاد جيوشه إلى انطاكية ووقف أمام المدينة بشكل مربع بسبب عدد جنوده الكبير ، وخرج البطريرك حاملا كتب الأناجيل ومعه رجال الدين وهم محاطون بكل الروعة الطقوسية للكنيسة لمقابلة الامبراطور ومعه جميع الناس ، وأطلق الملك أيضا بكياسة كبيرة للترحيب به ومعه أمير انطاكية وكونت عسقلان وتبعه جميع زعماء الملكة وإمارة انطاكية ، واقتيد الامبراطور وسط أصوات الموسيقى العسكرية للأبواق والطبول ، يقدر يليق بجلالة المرتبة الامبراطورية ، وهو متوج بالتاج الامبراطوري، اقتيد إلى المدينة حيث ذهب في أول الأمر إلى الكاتدرائية، أي كنيسة رئيس الحواريين ثم إلى القصر بصحبة المرافقة ذاتها من رهبان وأهالي المدينة (١٥٦)

وبعد أن أمضى الامبراطور عدة أيام بالاستمتاع بالحمامات والمسرات الأخرى أغدق خلالها الهبات على سكان المدينة بسخاء شديد حسب عادته المألوفة ، عزم - الامبراطور - على القيام برحلة صيد لتمضية الوقت ، وهكذا زار بمرافقة الملك مكانا توفر فيه صيد جيد ، فبينما كانا يطوفان خلال الغابة ، كما يفعل النصيانيون في متابعة تلك الرياضة ، وقع لهما حادث في اليوم الجليل لصعود سيدنا المسيح إلى السماء ، فقد كان الملك يتجول ممتطيا حصانه الرشيق على أرض وعرة مغطاة بشجيرات قصيرة وأشواك عندما طرح أرضا من على حصانه فكسرت نراعه .

عندما علم الامبراطور خبر الحادث تولى بنفسه مهام الجراح يعطف شديد للغاية وركع إلى جانب الملك وأسعفه بلطف وكأنه نفسه كان مجرد شخص عادي ، وأصيب بالوقت نفسه نبلاؤه وأقرباؤه بالدهشة والانزعاج حيث بدا للجميع أنه من غير اللائق بالنسبة للامبراطور أن يتخلى عن وقاره المهيب ، وأن يصرف النظر عن عظمته الامبراطورية فيظهر نفسه مخلصا وودودا للملك إلى هذا الحد وبعد عودتهما بسبب هذا الحادث إلى أنطاكية كان الامبراطور يقوم بزيارة يومية للملك ، وجدد بنفسه الكمادات ومراهم المعالجة وغير الضمادات بكل عناية ولم يكن بالفعل ليظهر عناية أكبر لو كان بلدوين ابنه حقا (١٥٧) .

عندما تماثل الملك للشفاء تماما ، أعلن الامبراطور بصوت المناادي أنه ينبغي على قادة الفيالق إرسال الآلات الحربية إلى الامام وأن يزحف الجيش في يوم محدد نحو مدينة حلب ، وغادر أنطاكية على الفور بمرافقة الملك وحكام المملكتين ووسط أصوات الأبواق والطبول التي تدعو إلى الحرب ، وتوقف الجيش بأسره عند مخاضة البلانة وهذا هو اسمها الدارج على السنة الناس .

أرسل الامبراطور رسلا من ذلك الموقع إلى نور الدين ، الذي صادف وكان موجودا في مدينة حلب في ذلك الوقت ، ورتب عن طريق

هؤلاء المنذوبين وجوب إطلاق سراح شخص يدعى برترام ، وهو ابن غير شرعي للكونت صنجيل مع بعض الأسرى الآخرين (١٥٨) ، وعاد الامبراطور إلى مملكته بعد وقت قصير من هذا حيث استدعته أموره الخاصة ، وعاد الملك بعد رحيل الامبراطور أيضا إلى بلاده مع الذين كانوا قد رافقوه .

٢٦ - نشوب شقاق خطير في كنيسة روما إثر وفاة البابا هادريان :

توفي في هذه الأونة هادريان نتيجة إصابته بالتهاب في اللوزتين في أناغني في كامبانيا فنقلت جثته إلى روما ، ودفن هناك بإجلال كبير في كنيسة القديس بطرس رئيس الرسل . واجتمع الكرادلة بعد ذلك للبحث في مسألة إيجاد خلف له ، وحدث أن اختلفت آراؤهم ، كما يحدث مرارا في ظروف كهذه ، فقد اختارت إحدى الزمر رونالد ، الكاردينال الراهب لكنيسة القديس بطرس نفسها ، والملقب بالقديس مارك ، والذي كان مستشارا للكرسي المقدس ، فاخترته وعينته بابا باسم الكسندر ، غير أن الفريق الثاني اختار أوكتافيوس وكان رجلا نبيل النسب وكاردينالا راهبا للكنيسة نفسها ويلقب القديس كليكية لما وراء التبير ، فرسم بالطريقة ذاتها وعين بابا باسم فيكتور (١٥٩) .

سبب الشقاق ، الذي نشب بسبب أثماننا انقسامنا بشكل عملي وانفصالا يتعذر تغييره في الكنيسة اللاتينية بأسرها ، حيث انتظم أعظم نبلاء المنطقة في زمر وتحالفوا مع هذا الفريق أو مع الآخر . استمر هذا الوضع تسعة عشر عاما تقريبا ، وتمكن أخيرا فريديك ، إمبراطور الرومان الذي كان يؤيد ويوجه فريق فيكتور ، من إقامة وحدة في الكنيسة بعدما تصالح تماما مع البابا الكسندر (١٦٠) ، أعيد الوثام إلى كنيسة الرب ، وشع السلام بعد مازالت ظلال الاثم « كنجم الصباح في وسط الغيوم » (١٦١) .

٢٧ - نور الدين يجتاح بلاد سلطان قونية
ويستولي على جزء منها بالقوة . الملك يعيث فسادا في
بلاد دمشق .

ابتهج نور الدين في هذه الاثناء كثيرا بسبب رحيل الامبراطور ،
فقد كان وصول ذلك الحاكم الجبار قد سبب له فزعا كبيرا ، وكانت
إقامته في المنطقة قد أقلقته بشكل كبير أيضا ، وشعر الآن بأمان من
القوة المرعبة للملك العظيم ، واعتقد بعدما عرف أن الملك كان قد عاد
إلى بلاده ، أن الفرصة التي كان قد تمناها لفترة طويلة من الزمن قد
أتت ، ولذلك ، استدعى الجنود من جميع أقاليمه ووجه حملة إلى
بلاد سلطان قونية التي كانت تتاخم أراضيها ، وسقطت في قبضته
مدينة مرعش بالاضافة إلى حصني كيسوم وبهسنى لأن السلطان
كان بعيدا جدا عن هذه المناطق ، ولم يتمكن من تقديم المساعدة لهما
بسهولة ، ولقد كان نور الدين عارفا تماما بهذا الوضع وإلما أقدم
على مهاجمة سلطنة قونية وهي سلطنة أقوى منه نفسه .

نقل نبأ هذه الحملة إلى الملك ، الذي كان مايزال محتجزا في تلك
المناطق مع جميع قواته ، وبما أنه كان عالما تماما أن منطقة دمشق ،
المجردة من قواتها العسكرية ، ستكون مكشوفة ويمكن أن تقع
فريسة سهلة المنال لمكائد أي عدو ، صمم على استثمار هذا الواقع
لمصلحته الخاصة ، فجمع جيشا واجتاح أراضي دمشق حيث حرق
ودمر كل شيء حسب هواه وبدون مقاومة ، وكانت جميع الأراضي
المعتدة حتى بصرى ، تلك المدينة المشهورة في العربية لابل حتى
دمشق تحت تصرف الجنود لكي يحرقوها وينهبوها كما يشاؤون .

كان في دمشق رجل نبيل يدعى نجم الدين ، وكان نور الدين قد
عهد إليه بأمر الاهتمام بشؤونه الشخصية والمسؤولية عن المدينة مع
توابعها ليحكمها حسب مشيئته الخاصة ، وذلك بسبب شهرته
وخبيرته الواسعة في المسائل الدنيوية ، وأدرك نجم الدين أن مولاه

كان مشغولا بأمور هامة على مسافة بعيدة عنه ، في حين لم تكن لديه سوى قوة صغيرة ليقاوم الملك بها ، ولذلك بحث بحكمة عن سبيل أخرى ليتجنب المخاطر التي كانت تحدق به ، فعرض على الملك دفع أربعة آلاف قطعة ذهبية وإطلاق سراح ستة فرسان من المرتبة العادية كانوا في أسره ، وطالب مقابل ذلك بعقد هدنة لمدة ثلاثة أشهر ، وكان بالاستخدام الحكيم للمال قد رشى العديد من الناس ليتوسطوا له ، ولهذا تمت بالتالي الموافقة على طلبه ، ونجح بهذه الاجراءات الحكيمة في إنقاذ المنطقة من جيش العدو (١٦٢) .

وأصبحت في هذه الأونة ميليساند ، التي كانت امرأة ذات حكمة وبصيرة نادرتين ، بمرض عضال لم يكن له علاج سوى الموت ، وقامت اختاها كونتس طرابلس وراعية راهبات دير القديس لازاروس أوف بيباني بالاشراف عليها بعناية متواصلة ، واستدعي أمهر الأطباء ، واستعملت أفضل العلاجات (١٦٣) ، وكانت ميليساند قد حكمت الممالك بقوة تفوق قوة معظم النساء وذلك لمدة ثلاثين عاما ونيف خلال حياة زوجها وبعد وفاته أثناء فترة حكم ابنها ، وكان حكمها حكيما ومتعقلا ، وتمددت الآن على فراشها لفترة طويلة من الزمن وكأنها ميتة بعدما أصبحت نحيلة الجسم وضعيفة الذاكرة إلى حد ما ، ولم يسمح إلا للقليين بزيارتها .

وفي هذه الاثناء كانت فترة الهدنة ، التي تم الاتفاق عليها مع نجم الدين ، حاكم دمشق ، قد انتهت وكان نور الدين ، الذي لم يكن قد أنجز مشروعه حتى الآن ، محتجزا في المناطق المذكورة آنفا ، وهكذا دخل الملك بلاد العدو بقوة السلاح وعاث فسادا بالمنطقة حسب هواه ، ودفع القطعان والعيبد وأحرق ونهب دون عائق ، وبعدما نهب المنطقة بأسرها ودمر الحقول المجاورة وأسر السكان عاد مجددا إلى مملكته بسلام .

٢٨ - الأتراك يأسرون الأمير أرناط صاحب أنطاكية ، ويلقونه في أحد السجون في حلب .

أبلغ بعد وقت قصير من هذا كشافه أرناط ، أمير أنطاكية ، أنه كانت هنالك منطقة مليئة بالقطعان والمواشي في المنطقة التي كانت عائدة من قبل إلى كونت الرها فيما بين مرعش وبلوك ، وبما أن هذه المنطقة كانت خالية من القوات العسكرية ، ولم يكن سكانها معتادين على استخدام الأسلحة ، فقد كانت عرضة للنهب بكل سهولة ، وأصغى أرناط السانج بكل انتباه إلى هذه الرواية ، فجمع على الفور قوة ضخمة وانطلق في زحفه في ساعة شؤم ، ووجد لدى وصوله إلى الموقع أن القصة كانت صحيحة ، فقد كان هنالك بالفعل عدد ضخم من القطعان والحيوانات ، إلا أن الناس الذين كانوا يملكون هذه القطعان والحيوانات كانوا من المسيحيين ، لأنه لم يكن هنالك أي من الأتراك في سائر تلك المنطقة إلا في القلاع ، وحتى هؤلاء كانوا أعدادا صغيرة ، وقد عينوا في تلك المواقع لحماية الحصون فقط وجمع الجزية من الناس ، وحرصتها عند دفعها إلى السادة الكبار الذين كانوا وكلاء عنهم ، وكان المسيحيون الأرمن والسريان يشغلون الحقول المجاورة حيث كانوا يتولون حراثة الأرض والعمل بالزراعة التي أوقفوا أنفسهم عليها .

استولى أرناط وقواته على المغانم والأسلاب من جميع الجهات بدون أدنى مقاومة ، وبينما هم عائدون بسلام وهدوء إلى ديارهم وهم محملون بالمغانم وبجميع أنواع السلع المسروقة قابلهم فجأة مجد الدين حاكم حلب ، وهو صديق مخلص وحليف لنور الدين . وكان قد خف مع جميع فرسانه من تلك المنطقة المسلحين تسليحا خفيفا نحو أرناط بعدما علم أنه كان عائدا من حملة نهبه ، وكان يهدف إلى مباغته المسيحيين في بعض الشعاب الضيقة وإنزال هزيمة منكرة بهم وهم يحملون الأمتعة والمغانم التي كانت تثقل كاهلهم ، أو أن يجبرهم بالقوة على التخلي عن الغنيمة على الأقل .

وتنفيذا للخطة الذكية التي وضعها الحاكم واتباعا لها قام الاتراك بالزحف ضد ارناط بتوجيه من الكشافة الذين كانوا قد نقلوا الخبر ، ووصلوا الآن إلى الموقع المذكور حيث كان الأمير مخيما بالقرب منه ومع جميع المغانم .

عندما علم الأمير أن العدو بات قريبا منه تشاور مع قومه حول أفضل ما ينبغي عمله في هذه الظروف ، وكانت الخطة المثلى أن يتم التخلي عن المغانم والاسراع إلى البلاد بون عائق ، وكان هذا أمرا يمكن تنفيذه بسهولة ، لكنهم فضلوا بدلا عن ذلك الاحتفاظ بالغنيمة وخوض قتال عنيف إذا لزم الأمر ، والتقت القوات المتعادية في المعركة في الصباح اللاحق عندما كان النهار قد تقدم إلى حد ما . وهجم العدو بالقسي والسيوف وحارب بشكل جريء للغاية ، وحاول المسيحيون بذل مقاومة عنيفة في البداية ، إلا أنهم استسلموا للذعر في آخر الأمر وتخلوا عن الغنيمة ولانوا بالفرار ، وأرغم الأمير ، عقابا لأثامه ، أن يكفر بنفسه عن جميع الجرائم التي كان قد اقترفها ، حيث أسره العدو ، وقيده بالسلاسل واقتاده إلى حلب بطريقة مخزية للغاية ليصبح هنالك مع زملائه الأسرى سخرية للكفرة .

حدثت هذه الكارثة في الثالث والعشرين من شهر تشرين الثاني في العام الثامن عشر من فترة حكم بلدوين وفي موقع يسمى الجومة (١٦٤) واقع بين كيسوم ومرعش .

٢٩ - قدوم رجل اسمه يوحنا إلى سورية ممثلاً للبابا حيث كان كاردينالاً راهباً في كنيسة روما ونشوب مشاحنة بين الأساقفة بخصوص استقباله . ولادة طفل اسمه بلدوين لعموري أخي الملك وكونت يافا

نزل خلال هذه الفترة ذاتها شخص يدعى يوحنا ، وكان رجلاً واسع الثقافة وكاردينالاً راهباً في كنيسة روما بلقب القديسين يوحنا وبولص ، نزل في جبيل مع بعض الجنوبيين . وكان البابا الكسندر قد أرسله إلى بلدان الشرق كممثل للبابا ، ونظراً لرغبته بالحصول على إذن لدخول المنطقة كممثل للبابا ، فقد جهد في سبيل تحقيق رضى الملك وأمراء المملكة المدينيين والدينيين بخصوص قدومه إليهم ، فقد كان هناك - كما ذكرنا من قبل - شقاق شمل الناس بأسرهم فقد كان بعضهم يؤيد البابا الكسندر ، وآخرون ضده ويشكلون الطرف الآخر ، وبعدما درست المسألة دراسة مطولة صدرت الأوامر إلى الممثل الباباوي بالبقاء لبرهة من الزمن في جبيل ، وكان عليه ألا يغامر بدخول المملكة حتى يكون رجالا الكنيسة وأمراء المملكة قد درسوا المسألة بشكل أكثر عمقا ومن ثم كان سيبلغ عما سيرضيه حول هذه المسألة .

وبناء عليه جرى استدعاء البطريرك وجميع رجالا الكنيسة الآخرين في الكنيسة إلى الناصرة حيث بدأوا يتباحثون مع الملك وبعض النبلاء وأيضاً بدراسة المنحى الذي سيتبعونه في وضع صعب كهذا ، لأنه بينما حافظ جميع مطارنة الشرق في البطريركتين على الحياد علانية ، كأفراد منعزلين ، أيد بعضهم أحد الأطراف بصورة سرية ، وأيد بعضهم الآخر الطرف الثاني .

وكما هو مألوف في ظروف كهذه لم يستطيعوا الاتفاق وسيطرت عليهم رغباتهم وقادتهم في اتجاهات عديدة فقد أعلن بعضهم أنه ينبغي الاعتراف بالكسندر واستقبال ممثله لكونه يمثل القضية

الأفضل ، وكان المؤيد الرئيسي لهذا الرأي بطرس ، ذو الذكرى الطيبة في الرب ، وكان من قبلنا رئيسا لأساقفة صور ، وعلى العكس فضل آخرون فيكتور على أساس أنه كان على الدوام صديقا للمملكة وحاميا لها ، وأكد هذا الفريق الثاني أنه يجب عدم استقبال الممثل الباباوي مهما تكن الظروف .

وأشار الملك بتبني طريق وسط وعدم استقبال أي من الطرفين ، وقد أيدته في ذلك بعض النبلاء وأصحاب المقامات الرفيعة في الكنيسة ، فقد خشي من نشوب نزاع بين الأساقفة قد يسبب انقساماً في الكنيسة ، وقرر الملك أنه يجب إعطاء الأذن للممثل الباباوي بالقدوم كحاج إلى الأماكن المقدسة لإقامة الصلاة ، إذا ما رغب بذلك ، وتخلي عن حقوقه الرسمية ومناصبه الرفيعة ، ومنحه الحرية للإقامة في المملكة حتى موعد الرحلة البحرية الأولى ، حيث يجب أن يعود إلى بلاده عند حلول موعد هذه الرحلة ، وقدم الملك سبباً لقراره هذا على النحو التالي : « إن تاريخ الشقاق حديث ، ولا يعرف الناس حتى الآن من من الطرفين عنده القضية الأقوى ، ومن الخطر في مسألة مريية كهذه تبني موقف مستقل والتجروء على الاعلان مقدما عن قرار محدد ، بينما ماتزال النتيجة مبهمه ، وعلامة على ذلك لاتوجد أية حاجة لممثل باباوي في المملكة لارهاق الكنائس والأديرة بنفقات ولاضعافها بالابتزازات .

كان هذا هو رأي الملك ، وبدا أنه معقول للغاية ، ومع ذلك ، فقد ساد رأي الطرف الذي أصر على أنه يجب استقبال الممثل الباباوي ، وهكذا ، وجهت له الدعوة إلى دخول المملكة ، وثبت فيما بعد أنه عبء ثقيل بالنسبة للعديد من الذين كانوا قد وافقوا على استقباله . (١٦٥)

في هذه الاونة رزق عموري كونت يافا وزوجته اغنيس ابنة كونت الرها بغلام . واستقبل الملك ، تلبية لمطلب الاب ، الطفل في جرن التعميد ومنحه اسمه ، وعندما سئل بدعاية عن الشيء الذي سوف

يمنحه لابن اخيه ، الابن الذي استقبله في جرن التعميد المقدس ، اجاب بلدوين بمرحه المؤلف وبطريقته الدمثية : « سأمنحه مملكة القدس » . فأثرت هذه الملاحظة تائيرا عميقا في قلوب الرجال الحكماء الذين سمعوها لأنها بدت لهم بأنها نبوءة مشؤومة وان الملك سيموت دون ان ينجب اطفالا على الرغم من شبابه وشباب زوجته ، الامر الذي ثبت بمرور الزمن انه كان كذلك (١٦٦)

٣٠ - اهالي انطاكية يستدعون الملك ، فيسرع الى هناك . وصول رسل امبراطوريين لطلب احدي قريبات الملك كزوجة لحاكمهم .

حرم اسر الامير ارناط اقليم انطاكية من تأييد القائد له ، واستولى الخوف والقلق على اهالي تلك المنطقة من جديد ، فقد انتظروا بترقب مضني من يوم لآخر خراب المنطقة ما لم يصبح الرب بالمصادفة مدافعا عنهم ، وصمموا في اخر الامر ان يلجأوا الى مصدرهم المؤلف للمساعدة والتماس العون ضد الشرور التي كانت تهددهم وذلك بمناشدة الشخص الذي طالما توسلوا اليه وكان يلبي التماسهم على الدوام ، وبناء عليه جرى ارسال وفد ليتوسل الى ملك القدس بالدموع والدعوات ليقدم بدون تاخير لمساعدة شعب باثس ، شعب كان على وشك الهلاك ، حيث يمكنه بذلك ان يحقق لنفسه المجد والشهرة في نظر الجنود ، ويفوز بثواب ابدى من الرب .

تحركت الشفقة العميقة لدى الملك ازاء المتاعب التي كان يعاني ذلك الشعب منها بعدما علم بالوضع اليائس في انطاكية ، وتولى - متبعا قدوة اسلافه - القيام باخلاص بالمهمة ، واسرع الى انطاكية بصحبة مرافقة مهيبية من الفرسان ، حيث استقبل ببهجة بالغة وسرور عظيم من قبل القادة والناس ، وبقي في انطاكية بقدر ما تطلبت مقتضيات الزمان والمكان ، وابدى عناية مثلى بامور الامارة وكأنها امور تتعلق به ، ثم عهد بحكم المنطقة الى البطريرك

بشكل مؤقت حتى يتمكن بنفسه من العودة ، وبعدما رتب الامور لتأييد الاميرة كما كان يليق بمنزلتها ، عاد الى الملكة حيث تطلبت عدة امور وجوده .

وبعد عودته وصل مبعوثون ونبلاء من منزلة عالية وشهرة كبيرة في القصر المقدس ، قادمين من عند امبراطور القسطنطينية ، وكانوا حملة رسالة ذات ختم ذهبي ورسائل خاصة للملك ايضا ، وكان قائد السفارة هو كونتو ستيفانوس اللامع ، احد اقرباء الامبراطور ، وكان الاخر هو المترجم الاول في القصر واسمه ثيوفلاكت (١٦٧) وكان رجلا داهية ومتحمسا جدا لاجل المصالح الامبراطورية . وكما قلنا كان هذان المبعوثان يحملان رسائل مقدسة فحواها بشكل اساسي على الشكل التالي : « تعرف يا أعز الاصدقاء ، والحبيب العزيز لامبراطوريتنا ان زوجتنا ايريني الشهيرة ذات الذكرى العزيزة في الرب قد توفيت وانتقلت روحها لتقيم مع ارواح النخبة من الناس ، وخلفت لنا ابنة وحيدة كوريثة للامبراطورية ، وبما اننا لم ننجب اي مولود نذكر ، فاننا ممتلئون بالقلق حول الخلافة ، وعقدنا مرارا تداولا جادا مع اشهر نبلاء القصر بخصوص اجراء زواج ثان ، وتقرر في آخر الامر ، بموافقة جميع امرائنا ومصادقتهم انه يستحسن ان نأخذ زوجة امبراطورة لنا سيدة من نسبكم حيث تخصكم من بين جميع امبراطوريتنا باعمق الحب ، كما اننا سنتقبل ايا من قريباتكم تختارونها لنا ، سواء اكانت اختا لكونت طرابلس اللامع ، او كانت الاخوت الصغرى لامير انطاكية الرائع ، وكلنا ثقة تامة باخلاصكم واختياركم زوجة لنا ورفيقة امبراطورية بمشيئة الرب » .

عندما ابلى المبعوثان الملك بغرض الامبراطور بوساطة الرسالة وشغويا وعد بالمساعدة والطاعة وشكر بجدية بالغة جلالاته الامبراطورية : أولا لانه اقترح ان يتحالف معه في مركز رفيع كهذا بوساطة احدى قريباته ، وثانيا بسبب اعترافه باخلاص بلويين

حيث ترك له وحده مسألة اختيار العروس المستقبلية والزوجة الامبراطورية .

٣١ - الملك يختار الفتاة الالامعة ميليساند اخت كونت طرابلس لتكون عروسا للامبراطور ، لكن بعد عام من التأجيل تخلى الامبراطور عما اختاره الملك ، وتزوج ماريا ابنة الأمير ريموند.

وبعدما تداول الملك مع مستشاريه بخصوص التحالف الذي سيكون مرغوبا جدا بالنسبة لمصالحه الخاصة ولمصالح جلالة الامبراطور استدعى رسل الامبراطور ووجههم بأقوال مقنعة ان يأخذوا ميليساند اخت كونت طرابلس وكانت فتاة ذات اخلاق رفيعة ومقدرة كبيرة ، كزوجة لحاكمهم الامبراطور ، فتقبل الرسل رسالة الملك باجلال لائق وقدموا موافقتهم ، بيد انهم طلبوا ترك اعلان القرار للامبراطور بوساطة الرسل والرسائل .

في هذه الاثناء جهزت والدة الفتاة وخالها واختها وعد كبير من اصدقاء الفتاة التي اختيرت لهذا المنصب المجد مجموعة ضخمة من الزينات تفوق زينة الاسرة الملكية نفسها ، وبنفقة غير محدودة وقد اشتملت على اساور واقراط وقلائد وتيجان من الذهب الخالص ، واعدت اوان فضية ذات وزن وحجم كبيرين لتستخدم في المطبخ ، والمائدة والمرحاض ، اضافة الى اللجومات والاسرجة - وبالاختصار ، فقد جهزت جميع انواع الاثاث . واعدت جميع هذه الاشياء بنفقة ضخمة وبحماسة كبيرة ، وكانت الطريقة التي صنعت بها هذه الاشياء وحدها دليلا على قيمتها الكبيرة جدا ، وفاقته بسهولة بذخ الملك وتقصى الاغريق خلال هذا الوقت بدقة جميع تفاصيل حياة الفتاة ، واستفسروا عن سلوكها واحوالها حتى انهم استوضحوا عن الصفات الجسدية السرية

للغاية ، وكانوا اثناء انتظار عودتهم على اتصال مستمر مع الامبراطور ، وهكذا انقضى عام كامل .

سخط الملك والبلاط مع بقية الاقارب والاصدقاء بشكل كثير ازاء هذا التاخير ، واستدعوا الرسولين الامبراطوريين علنا واعلنوا انذارا كان مفاده انه يجب عليهم اما ان يرفضوا الزواج الذي رتبتم اموره منذ زمن طويل ويعوضوا الاموال المنفقة ، او ان يتوقفوا عن تليفق اسباب تاخير يتعذر تفسيرها وانهاء المسالة باكمال الزواج حسب الشروط المتفق عليها اصلا ، فقد كان الكونت قد انفق نفقات كبيرة ، حيث كان قد امر ببناء عشرة من الشواني وجهازها تجهيزا تاما ، لانه عقد العزم على مرافقة اخته الى زوجها . وازضافة لذلك كان جميع النبلاء الاكثر اهمية في الامارة قد اتوا الى طرابلس بانتظار رحيل السيدة المقرب ، وكان الكونت يتحمل بسبب هؤلاء الضيوف النفقات الضرورية بشكل تام او جزئي .

هذا وقدم الاغريق كما هي العادة اجابات مراوغة ، وحاولوا اطالة المسالة لفترة اطول ايضا ، ولكي يحبط الملك خطتهم المراوغة ، ارسل اوتو اوف ريسبيرغ كمبعوث خاص الى القسطنطينية ، وقد خوله في ان يقدم مطالبا لاثقا في ان يحصل لكونه مندوبا على معرفة كاملة بالنوايا الحقيقية للامبراطور بدون مواربة . وعاد المندوب بشكل اسرع مما كان يتوقع ان يصل فيه ، وجلب كتابا من الامبراطور ورسائل افادت ان كل ما كان قد تم تنفيذه بخصوص هذا الزواج لم يكن مرضيا لسموه الامبراطوري على الاطلاق .

عندما تلقى الملك هذه الانباء انسحب من المفاوضات ، لان زواجا ، كان قد رتب عن طريق وساطته ، وانجز بمشاركة كبيرة منه ، ثم لم يحقق شيئا ، بدا بالنسبة له امرا مهينا للغاية ، وسينعكس بدون ريب بشكل سلبي عليه نفسه .

رحل المندوبان الامبراطوريان بقارب صغير صادف ان وجداه

جاهزا ، وتوجها الى قبرص لانهما خافا من ان يصب كونت طرابلس جام غضبه عليهما .

ذهب الملك الى انطاكية فور رحيل مجموعة النبلاء المجتمعين في طرابلس ، حيث كان قد اخذ على عاتقه القيام بمسؤولية الامارة تلبية للتوسل الجاد لشعب تلك المدينة ، كما ذكرنا سابقا ، ووجد لدى وصوله الى هناك مندوبي الامبراطور نفسيهما اللذين كان يعتقد بانهما غادرا طرابلس متوجهين الى وطنهما (١٦٨) . وكانا يعقدان بشكل مداولات ودية مع الاميرة حول ابنتها الاخرى ماريا ، وعلاوة على ذلك ، كان بحوزتهما رسائل مختومة بالذهب بحضور الامبراطور كان قد ضمن فيها المصادقة على اي اتفاق يتوصلان اليه مع الاميرة واصدقائها حول موضوع هذا الزواج ، وابلغ الملك لدى وصوله على الفور بهذه المفاوضات . وكان قد اھين كثيرا بخصوص المسالة السابقة لدرجة كان من المسوغ له ان يرفض حشر نفسه بالتدخل لمصلحة الامبراطور في المسالة الحالية ، ومع ذلك وبدافع الاحترام لقريبته اليتيمة ، التي كانت تفتقر الى اب يحميها ، فقد تولى القيام بذلك الدور ونجح في ترتيب الزواج بعد تاخيرات كثيرة (١٦٩)

وجهزت الشواني بعد انتهاء المسالة ، في موقع يسمى ميناء القدس سيمون (السويدية) الواقع عند مصب نهر العاصي ، وسلمت الفتاة الى المبعوثين ، وبدأت رحلتها بمرافقة موكب مهيب من اعظم نبلاء المنطقة الذين توجب عليهم اصطحابها الى زوجها .

٣٢ - الملك يعيد بناء حصن واقع على مقربة من انطاكية يدعى جسر الحديد . موت والدته الملكة ميليساند .

بينما كان الملك مقيما في انطاكية ، ولكي يجعل وجوده هناك مفيدا للمنطقة ، اعاد بناء قلعة كانت مشيدة فيما مضى عند احد الجسور فوق نهر العاصي ، وكانت تعرف عموما باسم جسر الحديد ، وكانت هذه القلعة الواقعة على بعد ستة او سبعة اميال عن مدينة انطاكية . ذات نفع كبير لمنع وقوع الغارات المعادية ، وخدمت أيضا كعائق ضد المدخل السري لقطاع الطرق .

بينما كان الملك منشفلا بهذا الشكل بأمور الامارة ، توفيت والدته الورعة بعدما أنهكتها المعاناة المستمرة من مرض مزمن ، وحدثت وفاتها في الحادي عشر من شهر ايلول ، واستسلم الملك للحزن عندما تلقى نبأ وفاة والدته ، وأظهر عمق عاطفته وتأثره عليها بشكل واضح الدرجة التي كان يحبها فيها باخلاص ، ولقد بقي في الواقع حزينا بعد ذلك لأيام عديدة .

دفنت الملكة ميليساند ، ذات الذكرى الرائعة ، والتي ستقيم من الآن فصاعدا مع الحشد السماوي ، في وادي يهو شفاط على يمين النازل الى قبر مريم العذراء الطاهرة والباركة والدة ربنا ، وترقد جثتها في سرداب حجري له بوابات حديدية ، ويقع بالقرب منه أحد المذابح حيث يحتفل يوميا بالقداس لراحة روحها وأرواح جميع المسيحيين الذين ماتوا في الرب (١٧٠)

٣٣- كونت طرابلس الساخط إزاء رفض شقيقته يسعى للاحاق الأذى بالامبراطور بكل وسيلة ممكنة .

امتلا في هذه الاثناء قلب كونت طرابلس بحزن وغضب بسبب السخرية التي تعرض لها من الامبراطور الذي رفض في النهاية قبول أخته نونما أي سبب ، وكأنها ابنة شخص عادي ، وبعد أن تحمل الكونت نفقة ضخمة جدا ، وتنهد الكونت وتأوه بشكل عميق عندما فكر بقلق وعمق حول وسائل للانتقام من الامبراطور بطريقة مشابهة ورد الصاع بالصاع ، وعلى الرغم من أنه أدرك في غمرة تأملاته أن الامبراطور كان أقوى ملك على الأرض ، وأن قوته لم تكن كافية ابدا ليلحق به أي ضرر ، فقد دفعه الاستياء الى اتخاذ عمل ما ، وخشية أن يبدو غير مكترث أو متناس الاساءة التي لحقت به ، أمر بتسليح الشواني التي كان قد اعدّها لغرض آخر . ثم استدعى القراصنة والمجرمين المتهورين ، والذين كانوا رجالا ارتكبوا أكثر الجرائم بشاعة ، وعهد اليهم بالمسؤولية عن السفن وأمرهم بتخريب مناطق الامبراطور بدون رحمة . وأمرهم بأن لايستثنوا العمر أو الجنس أو الوضع ، وتوجب عليهم أن يحرقوا كل شيء نونما تمييز بما في تلك الكنائس والاديرة ، وتنفيذ أعمال السلب والنهب في كل مكان ، وليتذكروا يوما أنهم كانوا يستخدمون السلاح والقوة في سبيل قضية عادلة .

وابحر القراصنة والمجرمون على ظهر البحر إطاعة لأمره ، وطاقوا في ممالك الامبراطور ، ونفذوا أوامر الكونت بحذافيرها في الجزر وفي المناطق المجاورة الواقعة على البحر ، فقد نهبوا في جميع الجهات وأحرقوا وقتلوا ، وانتهكوا حرمة الكنائس واقتحموا الاديرة نون احترام للأماكن المقدسة ، وسلبوا أموال الحجاج المسافرين اثناء رحلاتهم من وإلى الأماكن المقدسة ، وبغورهم الى الموت بهذا الشكل ، أو جعلوهم يطلبون حياتهم وهم معوزون وعراة يعيشون على التسول ، واستولوا على

سُلع التجار المسافرين الذين كانوا يكسبون أسباب الرزق لزوجاتهم وأطفالهم بتلك الطريقة وأجبروهم على العودة إلى وطنهم فارغين الوفاض بعدما فقدوا رأس المال والأرباح (١٧١)

٣٤- دس السم للملك في أنطاكية . وقوعه بسبب ذلك بمرضه الأخير وتوسله أن ينقل إلى الوطن . تفاقم المرض أثناء الرحلة وموته في بيروت .

في الوقت الذي كان فيه كونت طرابلس منشفلا بهذا الشكل في رغبته بالانتقام كان الملك موجودا في أنطاكية راغبا بالمعالجة والاستراحة قبل اقتراب فصل الشتاء ، كما كان معتادا على ذلك ، وقد حصل على بعض الأقراص من برق ، طيب الكونت، وتوجب عليه أن يتناول قسما منها على الفور ، وتناول البقية بعد مضي فترة قصيرة . لأن أمراءنا الشرقيين كانوا يحتقرون ، بسبب نفوذ نسائهم ، أنوية ومعالجات أطبائنا اللاتينيين ، ولا يصدقون سوى الأطباء اليهود والسامريين والسريان والمسلمين (١٧٢) ، فلقد وضعوا أنفسهم بطريقة طائشة للغاية تحست عناية أطباء كهؤلاء ، وعهدوا بأرواحهم لأناس جاهلين بعلم الطب ، وأشيع أن هذه الأقراص كانت مسمومة ، وربما كانت هذه هي الحقيقة ، وعلى أية حال ، عندما وضع باقي الدواء في خبز في طرابلس فيما بعد ، وأعطى كتجربة إلى أحد الكلاب ، توفي الكلب نتيجة ذلك في غضون أيام قليلة ، ولقد أصيب الملك فور تناوله الأقراص بحمى واسهال تطورا إلى مرض سل لم يتمكن أبدا من الحصول على النجدة أو المساعدة للشفاء منه ، وبعدها أترك الملك أن شدة معاناته من المرض كانت تزداد غادر أنطاكية وذهب إلى طرابلس ، وتمدد هنالك لبضعة شهور أملا بالتحسن من يوم لآخر وبعدهما تيقن في آخر الأمر أن مرضه كان يتفاقم وأن الشفاء كان مستحيلا ، أمر بنقله إلى بيروت وأمر باستدعاء مطارنة الكنيسة

- ٣٢١١ -

وحيث نأتي الى ختام هذا الباب المذون لأعمال هذا الملك ، فإننا
نتوجه أيضا بالدعاء أن تنعم روحه براحة مقدسة مع أرواح صفوة
القديسين أمين.

انتهى هنا الكتاب الثامن عشر